الفصل السادس

خلف المرآة

(عملية اتخاذ القرارات)

... كان أغلب الناس وبنسبة تسعة وتسعين بالمئة يؤيدون حالة اللاسلم واللا حرب، اللاهجوم واللادفاع. كانت لديهم رغبة واحدة: تحقيق أكبر قدر من المكاسب، والملذات لأنفسهم في هذه المياه العكرة، من المؤامرات المتشابكة التي حيكت في شقة صاحب السعادة، كان من الممكن تحقيق النجاح في هذا الأمر الذي قد يكون من غير الوارد النجاح فيه في وقت آخر.

فأحد هؤلاء ممن لا يرغب في فقدان وضعه المربح، نجده وقد أصبح متفقًا اليوم مع بفول، وفي الغد يتفق مع خصمه، في اليوم التالي يدّعى أنه ليس لديه رأي حول هذا الموضوع؛ هو فقط يتجنب المسؤولية ويحاول إرضاء صاحب السعادة. والثاني: يريد الحصول على منافع خاصة، فيتعمد جذب انتباه صاحب السعادة، ويعمل على ترديد نفس الشيء الذي كان يريده صاحب السعادة بالأمس، فيجادل ويصرخ في المجلس، وهو يخبط على صدره ويدعو معارضيه إلى مبارزته، وبهذه الطريقة يظهر كأنه مستعد للتضحية من أجل الصالح العام.

الثالث: ببساطة أخذ موقفه بين المجلسين، ونظرًا لعدم وجود أعداء فهو يتسول ويطلب لنفسه إعانة مالية لمرة واحدة نظير عمله المخلص، وهو يدرك جيدًا أن هذا هو الوقت المناسب، ولن يُرفض طلبه. أما الرابع: صدفة وقعت عيون صاحب السعادة عليه وهو منهمك في العمل. والخامس: من أجل تحقيق هدف طال انتظاره وهو تناول الغداء عند صاحب السعادة صار يحاول بشراسة إثبات صحة الآراء التي عُرضت من عدم صحتها، من أجل ذلك أخذ يسرد البراهين القوية أو الضعيفة لإثبات وجهة النظر.

استطاع كل الناس اصطياد الروبلات من هذا الحزب، والصلبان والرتب، وخلال عملية الصيد هذه كانوا يسيرون فقط مع اتجاه دوّارة الرياح لاستقطاب عطف صاحب السعادة، ولاحظوا أن دوارة الرياح تسير في اتجاه واحد فقط، بحيث أنه كلمًا هب كل سكان هذا الجيش بهذا الاتجاه، أصبح من العسير على صاحب السعادة أن يغيره في الاتجاه المعاكس.

ليو تولستوي

obeikandl.com

علمنا كيف يبدو مفهوم «المصالح الوطنية» للاتحاد السوفيتي (لروسيا في الوقت الراهن) في الشرق الأوسط والأدنى في كثير من الأحيان غامضًا وغير محدد، وكيف تبدو الأهداف والغايات وأساليب السياسة الخارجية ضبابية. لكننا نتحرك على أرضية أكثر هشاشة ومجهولة لنا تقريبًا، عندما نحاول شرح كيف ظهرت تلك المصالح والأهداف والغايات في أذهان بعض الناس، ثم ما لبثت أنْ تجلت في تصرفاتهم. ونحن نعرف القليل عن مسيرة اتخاذ القرارات بشأن قضايا الشرق الأوسط والأدنى، وفي السياسة الخارجية العامة. ومع ذلك، يمكننا أن نقول: أن هذه العملية تتم من قِبل أشخاص بعينهم. تصرفوا في إطار بعض المنظمات الاجتماعية، والمؤسسات التي تخضع لقواعد وتقاليد سلوكها وتخضع لتحول، وهو ما يسمى أحيانًا ديناميكيات مؤسسية. فرضت السمات الشخصية وخصائص المؤسسات الاجتماعية بصمتها على عملية صُنع القرار بالكامل، بمَّا في ذلك ما يخص الشرقيْن الأدنى والأوسط. لكن هذه السمات والخصائص يمكن أن تتجلى بشكل مختلف في الأوقات العادية، وفي أوقات الأزمات، عندما يتطلب الأمر اتخاذ إجراءات سريعة ومسؤولة.

كانت الكتابات السوفيتية التي تسلط الضوء على دور العوامل الشخصية والمؤسسية والشخصية الجماعية في تشكيل السياسة الخارجية السوفيتية قليلة جدًا. فقد كانت مذكرات فترات ستالين، وخروشوف، وبريجنيف مصبوغة بمشاعر النضال السياسي الحالي، ونادرًا ما كان لها صلة مباشرة بموضوعنا، وكانت تلك المذكرات تؤدي المهام التقليدية لجميع مؤلفي المذكرات؛ وهو عرض المؤلف في صورة إيجابية. فالوثائق التي كانت ستمكننا من دراسة مواقف الأفراد والجماعات والإدارات تجاه قضايا الشرق الأوسط والأدنى غير متوفرة. ولم يكن يتعذر الوصول إلى محفوظات وزارة الدفاع والمخابرات فحسب؛ ولكن أيضًا وزارة الشؤون الخارجية، واللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وقد أعطت التجربة الشخصية للمؤلف ومقابلاته مع المشاركين في العملية السياسية، مع أولئك الذين أعدوا أو اتخذوا القرارات، الفرصة لرسم تقريبي، ولكنه يبقى بعيدًا عن الصورة الكاملة.

تتخذ قرارات السياسة الخارجية الهامة دائمًا على مستوى قيادة الدولة.

والسؤال هو: إلى أي حد كانت تصل للقادة المعلومات الصحيحة عن الوضع الحقيقي، سواء الخاصة بهم أو الخاصة بمصالح الآخرين؟، وإلى أي حد كانوا قادرين على الاستيعاب واتخاذ القرار الذي يتفق مع أهداف السياسة الخارجية؟، وكيف كانوا يتصورونها؟ بطبيعة الحال، فإن محددات النتيجة النهائية كانت تعتمد على رؤية أولئك الذين جمعوا المعلومات

ولخصوهــا وأوصلوها للقيادات وقاموا بتقييم الإمكانيات، واقترحوا الحلول على أولئك الذين ينفذون السياسات. وهكذا تولد من رحم التفاعل بين جميع عناصر النظام ما سمى «بالسياسة الخارجية».

ظاهريا، الديكورات المنتقاة بعناية حول «الديمقراطية الاشــتراكية الأكثر تطوراً في العالم» تخفي المســار الحقيقي لصنع القرار. وقد كان هذا موجودا في دساتير ستالين، ثم بريجنيف من بعده.

مــن الناحية الشــكلية كانت هناك فروق بين هيئات الســلطة في الدولة وهيئات الإدارة العامة، بمعنى الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية التي يمثلها مجلس الوزراء؛ وعلى رأسه رئيس مجلس الوزراء الذي كان يقوم بمتابعة شؤون السياسة الخارجية وزارة الخارجية ولجنة أمن الدولــة: وفي المجال الاقتصــادي – وزارة التجارة الخارجية، ولجنة الدولة للعلاقات الاقتصادية الخارجية (دُمجت اثنتين مــن هيئات الاقتصاد الخارجي لتصبح هيئة واحدة في عام 1988: وبعد ذلك أُلغيت). كانت لجان الشــؤون الخارجيــة في مجلس الاتحاد، ومجلس القوميات في المجلس الأعلى التي لم يأخذها أحد في أي وقت على محمل الجد، لا تشــكل جزءًا أساســيًا من المشــهد السياسي. كان مجلس السوفيت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية الــذي يُختــار أعضاؤه بعناية من قبــل قيادة الحزب، يجتمع مرتين أو ثلاث مرات في الســنة للاستماع إلى التقارير والقرارات المتخذة من قبل قيادة الحزب.

كان الجميع يعرفون أن السلطة الحقيقية تتركز في يد الحزب، وعلى نحو أدق، في يد لجنته المركزية، أو على نحو أكثر دقة في يد المكتب السياســي. كان زعيم الحزب هو الشــخصية الأولى في البلاد، وكان يســتطيع أن يتصرف مثل الدكتاتور المقيد في أفعاله من خلال التقليد وميزان القوى في الجزء العلوي من الهيكل الهرمي للحزب. أصبح ســتالين الديكتاتور المطلق، ولم يســتطع حلفاؤه في أي وقت مــن الأوقات التمتع بمثل ســلطته الكاملة ونفوذه القوي. لماذا كان لقب الديكتاتور؟ لا يهم. كان من الممكن أن يكون ببســاطة الأمين العام، وكان مــن الممكن أيضًا أن يجمع بين وظائف زعيم الحزب ورئيــس مجلس الوزراء، أو الأمين العام ورئيس هيئة رئاســة مجلس الســوفيت الأعلى أو الرئيس. وجاءت المحاولة الأخيرة من النضال السياســي في مؤتمر الحزب السابع عشر في يناير 1934. فاز ستالين في المؤتمر، وسرعان ما قتل خصمه س. م. كيروف في ظروف لم يُكشف عنها حتى الآن، وبعد ذلك تم التخلص من الجزء الأكبر من أعضاء المؤتمر. ومنذ ذلك الحين صار جميع المشاركين في كل المؤتمرات في عهد

ستالين، وخروشـوف، وبريجنيف وقبل وصول ميخائيل جورباتشوف يجتمعون من أجل إقرار التوجهات السياسية للأربع إلى خمس سنوات المقبلة التي أعدها الجهاز، ووافق عليها المكتب السياسـي، دون اعتراض أو مناقشـة مستخدمين أسـلوب «التصفيق المتواصل العاصف»، وأيضا لإقرار التعديل الذي يعتمده المكتب السياسي في تركيبة النخبة للحزب في وجه أعضاء اللجنة المركزية، والمرشـحين لأعضاء اللجنة المركزية وأعضاء لجنة التفتيش. أصبحت المؤتمرات عبارة عن عرض مسـرحي لإضفاء الشـرعية على توازن القوى داخـل النظام نتيجة للصراع البيرقراطي الداخلي. لم تناقش أبدًا قرارات السياسـة الخارجية والأعمال الأخرى، على الرغم من أن المواد ذات الصلة كانت مُدرَجة في التقارير المحاسـبية وقرارات المؤتمر، وعلى الرغم من مشاركة وزراء الخارجية وغيرهم من الأشخاص ذوى الصلة لإدارة السياسة الخارجية.

بعد الانقلاب الذي وقع في أكتوبر 1964م وأطاح بسلفه نيكيتا خروشوف، وزعت في اجتمـاع اللجنة المركزية مناصب: الأمين العام (ليصبح ليونيد بريجنيف الأمين العام)، وأصبح أ. ن كوسيغين رئيسا لمجلس الوزراء. وفي عام 1965م انتخب ن. بودجورني رئيسًا لهيئة رئاسة المجلـس الأعلى؛ ولكن الجميع يعرف أن الضغوط الملقاة علـى كاهل الأمين العام أدت إلى ظهور الرجل الثاني وهو «الكاردينال الرمادي» ميخائيل سوسلوف الزاهد والمفكر الذي ظل حتى وفاته يرتدي الكالوش(1)، وبفضل ذلك وفقا لشائعات غير مؤكدة استمر إنتاج الكالوش في موسـكو. لعب ن. بودجورني دورًا مهمًا لبعض الوقت في السياسـة الخارجية. وكُلف في عام 1971م لتوقيع اتفاقية مع مصر. ومع ذلك، وحتى قبل الجمع بين وظائف الأمين العام ورئيس مجلس السـوفيت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الإشـتراكية السوفيتية في عام 1977م انتقلت الحقوق الدستورية الخاصة ببودجورني إلى بريجنيف. وفي ذلك عدم التزام بالقانون.

علـى أي حـال، كان الحزب يعني المكتب السياسـي. عندما كان يُقـال «قرار اللجنة المركزية» يُفهم مباشـرة أن هذا قرار المكتب السياسي أو قرار الأمانة. وكان المكتب السياسي يجتمع مرة واحدة في الأسبوع. وكان من المفترض أنه إذا وافق المكتب السياسى على قرار، فإن هذا القرار يكون خارجًا عن النقاش. وهذا هو ما يحكي عنه موظف بارز سابق في الحزب.

ن. إيجوريتشـيف[1]: كانت القرارات في مجال السياسة الخارجية، كما هو الحال في مجال الاقتصاد والشـؤون الداخلية الأخرى تتخذ من قبل دائرة ضيقة جدًا من الأفراد دون مناقشة كافيـة، ودون مبررات، ودون تقييمات حقيقية من قبل الخبراء. غالبًا ما تهيمن الطموحات، ناهيك عن ضعف الأسـاس النظري لاتخاذ القرارات. بشـكل عام، فإن في كل قضية بما في

* حذاء يلبس فوق الحذاء العادي للدفء أو لمنع البلل أو الطين. (المترجم).

ذلك قضايا الشرق الأدنى والشرق الأوسط كان لا بدّ أن تتلاقى وجهات نظر ثلاث هيئات – الكي جي بي، ووزارة الدفاع، ووزارة الشؤون الخارجية، بمشاركة الدائرة الدولية للجنة المركزية بطبيعة الحال. ولكن كل شيء كان يعتمد على المنطقة. فإذا كانت المنطقة من النوع الذي يتوفر منه فوائد كبيرة للجيش، كانت تسود وجهة نظرهم بالطبع. لكني لا أعتقد فيما يتعلق بالشرق الأوسط والأدنى أن وجهة نظر العسكريين كانت النقطة الرئيسة. وأعتقد أن مجموعة من الأهداف المتشابكة والسياسية بما في ذلك العلاقات مع مصر كانت تهيمن في المقام الأول هناك. لكن الجيش كان مهتمًا بأن يكون لدينا قاعدة في مصر. كان هذا صحيحًا، بما أن الأميركيين يوجدون في البحر الأبيض المتوسط على سبيل المثال، كم كان عدد المستشارين العسكريين الأمريكيين في إيران؟ وما هي الأسلحة التي يتلقاها من دول أخرى؟ أو تركيا. ألم يسبب بناء الأمريكيين قواعد عسكرية لهم قلقا لنا وخلق نقاط مرجعية مختلفة؟ كان يجب أخذ وجهات نظر الجيش في الاعتبار في هذا الشأن. ولكن حتى إذا استطاعت الدبلوماسية تحقيق تحسن العلاقات مع هذه الدول، واستطاعت تحقيق فكرة أن حكومات هذه الدول تدرك مسؤوليتها تجاه العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، وتمارس ضبط النفس للنشاط العسكري الأجنبي على أراضيها، لاستطاع الجيش أيضا تقييم هذا الأمر بصورة صحيحة. فجميع القرارات الخاصة بالقضايا السياسية والاقتصادية الكبرى كانت تتخذ في المكتب السياسي.

لم يكن للهيئات التنفيذية عندنا بما في ذلك الوزارات والوزراء شخصيًا أية حقوق. كان عليهم فقط تنفيذ قرارات الخطة المشار إليها بأية وسيلة. وكان لديهم حق واحد فقط — وهو الطلب: "هيا،هيا، اضغط! افعل بأي ثمن!". أنفقوا مبالغ ضخمة من المال (ونحن لسنا دولة غنية جدًا) على الدفاع من أجل تحقيق التوازن العسكري. نعم، وتقديم المساعدة إلى أفغانستان، كوبا، فيتنام، إثيوبيا، اليمن. . . كل ذلك تسبب في إرهاق اقتصادنا.

عادة ما تلزم نخبة الحزب الإداري الإدارات ذات الصلة، والمكتب السياسي بإدارة شؤون السياسة الخارجية للبلاد. وكان يتم إبلاغها بالخطوات والأحداث المهمة أثناء الجلسات العامة والمؤتمرات. وكانت الاشتباكات والنزاعات نادرة الحدوث. سرت العديد من الشائعات عن حادثة واحدة — عندما قام ن. إيجورتشيف السكرتير الأول للجنة مدينة موسكو التابعة للحزب الشيوعي بإنتقاد السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط في يوليو 1967. وأشيع أن هذا النقد تسبب في إقالته.

المؤلف: هل هذه الشائعات صحيحة؟

obeikandl.com

ن. إيجوريتشيف: لا أعتقد ذلك تمامًا. فقد تصاعد الصراع بيني وبين بريجنيف. وكنت أحد الأعضاء الشباب في اللجنة المركزية (كان عمري وقتها 47 عامًا)، الذين اعتقدوا أنه من الضروري أن تلتزم اللجنة بالمسار الذي رسمه المؤتمر العشرون والثاني والعشرون للحزب. بدأ خروتشوف، ثم بريجنيف بالابتعاد عن هذا الاتجاه. وأراد بريجنيف بشدة، أن نقوم نحن نشطاء الحزب بنشر نفوذه وسلطته. أعتقد أن المثل الأعلى له كان ستالين.

المؤلف: هل كانت خلافاتكم إلى حد ما ناجمة عن السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط؟

ن. إيجوريتشيف: كان السبب الرئيس في خلافاتنا هو المسار السياسي لحزبنا وللدولة. في عام 1967م قلت أن الصراع في الشرق الأوسط يتطور بسرعة، ولذلك كان من الضروري مناقشة قضايا الدفاع الوطني في واحدة من الاجتماعات العامة للجنة المركزية؛ لأنني أشعر بالقلق إزاء بعض القضايا الدفاعية. في ذلك الوقت اعتُمد قرار بشأن تدمير السفن الكبيرة لأسطولنا الحربي. وقد تسبب هذا في إحداث ضرر كبير في منظومة الدفاع عن بلادنا. وأخطأنا أيضا بشأن سلاح الطيران؛ حيث أغلقنا وغيرنا العديد من مصانع الطائرات في أوكا. لقد قلت إنني أشعر بالقلق إزاء كفاءة منظومة الدفاع الجوي في موسكو. صار النظام القديم عتيقا – فهو على بعد 40 – 50 كيلومتراً من موسكو، ومدى فاعليته محدود للغاية، وتأخر إنشاء أنظمة الدفاع الجوي الجديدة. من خلال الربط بين المشاكل الخاصة بأنظمة الدفاع في الشرق الأوسط، قلت: أنا أعتقد أن لدينا الكثير من نقاط الضعف في المجال العسكري. ولذلك تمت إقالتي من منصب السكرتير الأول للجنة مدينة موسكو التابعة للحزب الشيوعي، وأرسلت سفيراً في الدنمارك ليس بسبب منطقة الشرق الأوسط.

* * *

الرباعي: وزارة الخارجية ـ دائرة العلاقات الخارجية للجنة المركزية للحزب الشيوعي ـ الاستخبارات (كى جى بي) ـ وزارة الدفاع

يمكن القول بأن ميزان القوى في المكتب السياسي قد تغير، ولكن السياسة الخارجية كان يحددها بشكل متزايد بريجنيف نفسه الذي كان يسترشد به دائما وزير الخارجية أ. جروميكو. من الواضح، أنه قد أُخذ بعين الاعتبار آراء سوسلوف وكوسيجين وبودجورنى وجريشكو (ثم

obeikandi.com

أوسـتينوفا) وأندروبوف. عندما كان بريجنيف يتخذ القرار بنفسه، لم يعنِ هذا أنه اكتسب السلطة الحقيقية. في النصف الثاني من السبعينيات صار رجلًا مسنًا مريضًا، واستطاع المحيطون به ومساعدوه التلاعب به بذكاء كما يحدث مع غيره من القادة كبار السن.

أُعدّت قرارات المكتب السياسـي على أسـاس النشـاط الرسمي للحزب وهياكل الدولة والاتصالات غير الرسمية مع الأخذ بعين الاعتبار الثقل الحقيقي للشخص في التسلسل الهرمي للحـزب والدولة. وتقـوم عملية صنع القرار على التفاعل والتواصـل بين حلقات بيروقراطية مختلفة حتى يتم التوصل إلى توافق في الآراء. وكانت قرارات المكتب السياسـي نفسـه تتخذ عادة من دون تصويت وبتوافق الآراء.

داخـل جهاز اللجنة المركزية الذي ينقسـم إلى وحدات وظيفية، كان يشـارك في إدارة الشـؤون الدولية كل من القسم المسـؤول عن البلدان الإشتراكية، والمكتب الدولي الذي كان يرأسـه ب. بونوماريف منذ عام 1955، أمين اللجنة المركزية منذ عام 1961، وأصبح في مايو 1972 عضوًا مرشحًا في المكتب السياسي.

كانـت العلاقات مع حركات التحرر الوطنية والأحزاب السياسـية ومنظمات أخرى من اختصاص المكتب الدولي للجنة المركزية الذي كان ينفذ هذه الاتصالات إما مباشـرة أو من خلال المنظمات غير الحكومية، مثل اللجنة السوفيتية للتضامن مع دول آسيا وأفريقيا، ولجنة السـلام السـوفيتية. ثم بعد ذلك، تأتي القرارات ذات الصلة الصادرة عن اللجنة المركزية وهي مـن اختصاص لجنة الأمن الأوروبي، ولجنة مناهضـة الصهيونية وغيرها. ومُوّلت هذه اللجان بدرجة كبيرة من ميزانية الدولة أو من قبل مؤسسة السلام.

وفي اللجنة المركزية كان هناك قسـم أجهزة الحزب، وهو المسـؤول عن اختيار كبار رموز الحزب، وكذلك تعيين كبار الدبلوماسـيين. وقد مُرّر في عام 1971 اختيار كوادر السياسـة الخارجية وغيرهم من الموظفين للعمل في الخارج لِما يُسمى بقسم السفريات في اللجنة المركزية. ويُعتمَد السـفراء من قِبل المكتب السياسـي، أما المناصب الأقل بما في ذلك مراسلي جريدة «البرافدا» فيُعيّنون من قِبل الأمانة العامة للجنة المركزية، ولكن كقاعدة عامة، كان ذلك يتم عبر استفتاء، أي من خلال جمع توقيعات الأمناء على القرار.

تنامى دور وزارة الشـؤون الخارجية في تشـكيل السياسة الخارجية – وتضاءل أحيانا وفقا للتغيرات الحادثة في هيكل هرمية الحزب.

كان ف. مولوتوف وزير الخارجية منذ عام 1939 حتى عام 1956 مع انقطاعات قليلة، شخصًا دؤوبًا وذكيًا ولكنه قاس — كان يختار كوادر وزارة الخارجية ممَنْ هم على شاكلته فقط. كان يعرف قواعد اللعبة، والثمن الذي يجب أن يُدفع لكونه على قمة الهرم واليد اليمنى للديكتاتور. ونجا بنفسه فقط لأن ستالين كان قد توفي في الوقت المناسب: ظل مولوتوف لفترة طويلة في الطبقة العليا من الهرم السياسي، وعرف أكثر من اللازم، وكون كثيراً من العلاقات. وعلى ما يبدو قرر ستالين الإطاحه به. وبالفعل قُبِض على زوجة مولوتوف بولينا جيمتشوجينا وأُرسلت إلى المنفى «لاتصالها مع السفارة الإسرائيلية»، كما ألقي القبض على موظفي مولوتوف في وزارة الخارجية. وضاقت الحلقة حول «الحليف المخلص لستالين،» واقتربت ساعته. ولم يكن هو الاستثناء الوحيد – فحاشية ستالين بأكملها كانت تتألف من أمثاله.

ونعود للحديث عن الهياكل الرسمية. عن الصراع مع «الحرس القديم»، حيث قام نيكيتا خروشوف بالإطاحه بمولوتوف من وزارة الخارجية.

وأُوفد د. شيبيلوف وهو رئيس تحرير جريدة «البرافدا» إلى الشرق الأوسط، وبعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي أصبح وزيراً للخارجية. أخذ جانب «الحرس القديم» في عام 1957، عندما تغلب خروشوف بفضل دعم المارشال جوكوف على الجميع. وأُطيح بالمجموعة «المناهضة للحزب» من أمثال مولوتوف، وكاجانوفيش، وشيبيلوف الذي انضم إليهم. لكن وفقًا للتقاليد الجديدة لخروشوف، لم يتم تصفية هذه المجموعة جسديًا، ولكن تم إذلالها حتى قضي عليها سياسيا.

أما الدبلوماسي المخضرم أ. جروميكو الذي أصبح وزيراً للخارجية في عام 1957، فلم يكن يتمتع في بداية حياته المهنية بالثقل السياسي الذي كان لدى أسلافه، وقد ازداد تأثير جهاز اللجنة المركزية والإدارات التابعة له في اعتماد قرارات السياسة الخارجية في ذلك الوقت. ثم بدا أن التطورات في الشرق الأوسط تتجه نحو اليسار. وظهرت مسميات مثل:«الديمقراطية الثورية» و«التوجه الاشتراكي». وقد كانت السياسات في المنطقة تسير في اتجاه الأيديولوجية بأقصى درجة ممكنة، وعاد تأثير الادارة الدولية للجنة المركزية للحزب الشيوعي، برئاسة البيروقراطي الحذر بوريس بونوماريف.

صار اسم بونوماريف كأمين للجنة المركزية يأتي قبيل اسم جروميكو في قائمة التسلسل الهرمي للحزب، وأصبح تأثيره معادلًا لتأثير بونوماريف فقط بعد سقوط خروتشوف، ووصول

بريجنيف للمنصب الأول في الحزب والدولة، وأيضًا عندما قام جروميكو بالرهان على رئيسه الجديد، واكتسبت ثقته، وعندما أصبح صديقه يو. ف. أندروبوف رئيس الكي جي بي وعضو في المكتب السياسي منذ عام 1967 (أي في منتصف الستينيات).

في أبريل 1973، انضم جروميكو إلى جريشكو وأندروبوف في تشكيل المكتب السياسي. وأُبعِد بونوماريف. في مارس 1983 أصبح جروميكو النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء و "قيصر السياسة الخارجية".

ويذكر ك. بروتينتس أن «القسم الدولي ككل لم يلعب دورًا رئيسًا في السياسة الخارجية، على خلاف إدارة العلاقات مع الأحزاب الشقيقة الحاكمة في البلدان الإشتراكية، نعم، ولم يُعطِ المسؤولون في وزارة الخارجية أهمية كبيرة لهذه المجموعة من البلدان».

فيما يخص قضايا السياسة الخارجية كان الدور الأكبر منوطا بوزارة الخارجية، وجهاز المخابرات الذي كان له دور مستقل نسبيًا بحكم وجود جهاز استخبارات خارجية قوي، إلى جانب وزارة الدفاع التي كانت مسؤولة عن بعض القضايا الخارجية. سعت وزارة الخارجية، مثل كل مؤسسة بيروقراطية، إلى الحفاظ على مجال اختصاصها. وحاولت عدم السماح للآخر بالتدخل في اختصاصاتها، ومن بين الوسائل التي استُخدِمت لتحقيق ذلك كان الحد من المعلومات الواردة من السفارات إلى قسمنا على وجه الخصوص. . .

اعتمد تأثير مختلف الهيئات (ذات الصلة بالشؤون الدولية) على وضع قياداتهم وثقلها، وبالتالي اختلف هذا التأثير من وقت لأخر. مثل هذا الوضع المعتاد والطبيعي لجهاز الدولة في أي بلد، والذي يمثل صورة مصغرة للبيروقراطية فيها، حتى في الاتحاد السوفيتي في النصف الثاني من السبعينيات حتى بداية الثمانينات اكتسب أبعادًا بشعة. اقترب وزير الخارجية أ. جروميكو السيطرة على مقاليد سياستنا الخارجية مستغلًا الحالة المرضية لبريجنيف والعلاقات الودية معه. وأثر ذلك في سياستنا بصورة محزنة. وفي خلال فترة وجيزة عندما أصبح بونوماريف عضوًا في المكتب السياسي، وظل جروميكو عضوًا في اللجنة المركزية، تنامى دور القسم الدولي.

في ظل الظروف العادية، فإن الاتجاه المركزي للسياسة الخارجية مثل الاتجاه الأمريكي ظل خارج أي تأثير. أمّا في الاتجاه الأوروبي فقد لعب دورًا استشاريًا كبيرًا، ناقلًا رأي الأحزاب الشيوعية، ومتتبعًا موازين القوى الاجتماعية بدقة، عن طريق دراسة العامل الاجتماعي.

كان الحـــال مختلفًا إلى حد ما مع التحركات التي تســتهدف البلــدان النامية وخاصة في المنطقة العربية؛ حيث لعب القسم– في تعاون وثيق مع وزارة الشؤون الخارجية – دورًا نشطًا. ومن وجهة نظري كان لذلك عدة أسباب؛ من بينها تحوُّل تحيز وزارة الشؤون الخارجية ورئيسها نحــو الغرب، الذي كان ينظر إلى البلدان النامية كمناطــق ثانوية. وكانت المنطقة العربية هي الاستثناء الوحيد، ومن المرجح أن ذلك يرجع لوجود الأميركيين.

وعلى العكس من ذلك، أظهر القســم الدولي ورئيســه اهتمامًا جديًا بهذه المنطقة. وبعد ذلك تمكن موظفو القســم من إقامة علاقات طيبة مع قيادات وشــخصيات بارزة من عدة دول عربية. وأخيرًا، نشــأ في هذا المجال تعاون وثيق بين جميع الأطراف؛ وذلك بفضل الولاء المتبادَل بين القســم الدولي والهيئات التابعة لوزارة الخارجية برئاسة النائب الأول لوزير الشؤون الخارجية ج. كورنينكو، ومن بعده أ. بيسميرت (الذي استوعب التوجّهات بسرعة مدهشة، وكان لديه قدرة على التحدث مع العرب[2].

بشــكل عام، فإن العلاقة بين وزارة الشؤون الخارجية والقسم الدولي لم تكن جيدة جدًا. ويرجــع الأمر هنا إلى التنافــس المعتاد بين الهيكليْن الذيْن يعمــلان في نفس المجال. ولعبت العلاقات الشخصية المعادية لكل من جروميكو وبونوماريف دورًا مهمًا إن لم يكن حاسمًا.

كانت علاقة القســم الدولي مع كي جي بي، أكثر سلاســة، أو بالأحرى مع ما يُطلق عليه الآن اســم جهاز الاستخبارات الخارجية ومع فرعه السياسي (وإن كانت هذه العلاقات قد أخذت أشــكالا مختلفة مع الوحدات المختلفة للقســم الدولي). على ما يبدو، فإنَّ ذلك يرجع إلى حقيقة أنه لم يكن هنا أســاس للعبة «شد الحبل» البيروقراطية، بسبب الاختلافات في مجالات النشاط والوضع الخاص لـ الكي جي بي. يجب أن أقول: إن موظفي الاستخبارات الخارجية كانوا على درجة عالية من الكفاءة[3].

كان يفجيني ســاموتيجين مستشار بريجنيف الخاص بشؤون الشرق الأوسط الذي أُرسل في عام 1983، بعد رحيل بريجنيف إلى «المنفى» ســفيرًا في أســتراليا. تقول أستاذة العلوم السياســية الأمريكي كارين دافيشا: ''من الممكن أن يعكس ذلك حالة الانقسام القائم بين بريجنيف وبونوماريف حول سياسة الشرق الأوسط''[4]. وللأسف فإنه من الصعب أن نتفق مع الباحثة المثقفة والذكية التي تقول: من الممكن أن نجد في الهيكل السياســي السوفيتي انقسامًا على المســتوى الأفقي بين الأشخاص المتساوين في المراتب، ولكن فعليًا لا يوجد أي انقسام

على المستوى الرأسي بين الرئيس والمرؤوس.

أثرت مجموعة المستشاريين «أي المفكرين» في القسم الدولي التابع للجنة المركزية بعض الشيء في المواقف، وعلى السلوك السياسي للقيادة السوفيتية، كما كان لها تأثير شخصي على بريجنيف. "وتشكل واقع أصبح فيه لدى كل من المساعدين أحد أعضاء الحزب النشطين. فكان يوجد لدى أ. الكسندر وف. زاجلادين، النائب ثم النائب الأول لرئيس القسم الدولي، ويوجد لدى ج. تسوكانوف رئيس المجموعة الاستشارية لقسم البلدان الاشتراكية، ثم كاتب عمود في جريدة «إزفيستيا» أ. بوفين وكذلك ن. إينوزيمتسيف وج. أرباتوف، وكان يوجد لدى أ. بلاتوف ن. شيشلين الذي حل محل بوفين في منصب رئيس مجموعة المستشارين. وكانوا يعملون معهم دائمًا في إعداد مختلف المواد. وتمكن «الأعضاء النشطون» من خلال المساعدين المقربين من الوصول إلى الأمين العام، والدخول في دائرة مستشاريه السياسيين المقربين وشجعهم بطرق مختلفة. وأصبح كل من أرباتوف، زاجلادين، وإينوزيمتسيف أعضاء في اللجنة المركزية ونواب مجلس السوفيت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، أما بوفين فقد أصبح عضوًا في لجنة التفتيش للحزب الشيوعي ونائبًا في مجلس السوفيت الأعلى[5].

كان في هذه المجموعة أشخاص يمتلكون مواهب خاصة. ولكن في ظل هذا النظام لم يتمكنوا من إضفاء أي شيء من مواهبهم «الخاصة» على القرارات السياسية المتخذة. أدرك كثير منهم أنه "لا يمكن الاستمرار طويلًا على هذا المنوال». لكنهم توصلوا إلى نتائج متعارضة: إما أن يأتي النور من الغرب وحينها يجب أن نفعل كما يفعلون وإما دعونا نعزز وندعم النظام ونطهر الماركسية اللينينية من التشوهات ونضع الأمور في نصابها. » أتذكر تلك الجلسة (كانت بعد عدة سنوات عشية الغزو الأميركي للعراق)، مع ل. ميرونوف وكان آنذاك رئيسًا للمجلس الفيدرالي للجمعية الاتحادية في روسيا، وحضرت الجلسة بصفتي منسقا لها. قال فيها أ. بوفين بحماسة وثقة:«إنه لأمر رائع إذا كان الأميركيون ينوون الاستيلاء على العراق واحتلاله. كما هو الحال في ألمانيا أو اليابان، فإنهم سوف ينشرون الديمقراطية والحضارة الحديثة هناك».

وبعد عزل المارشال جوكوف من المكتب السياسي ووزارة الدفاع، لم يدرج وزراء الدفاع في تشكيل المكتب السياسي وهم: ر. مالينوفسكي منذ عام 1957، وأ. جريشكو منذ عام1967، وظل الوضع هكذا حتى عام 1973. ومع ذلك، يعرف الجميع أن المجمع الصناعي العسكري كان تقريبًا المكون الرئيس لبنية الحزب في الدولة السوفيتية.

ومع ذلك، فإنه من غير المحتمل أنه كان يلعب دورا تجاه السياسة في الشرق الأوسط، على الرغم من أن المواقع العسكرية تؤخذ دائمًا في الاعتبار. وبعد ظهور مجموعة كبيرة من المستشارين العسكريين السوفيت في الدول العربية، ووحدات قتالية على فترات قصيرة – في مصر وسوريا كان من الطبيعي، أن ينتهج العسكريون سياستهم الخاصة، متجاهلين وزارة الخارجية والسفارة. وكانت أراؤهم قوية وتؤخذ جديًا بعين الاعتبار عند مناقشة القضايا العسكرية والاستراتيجية. فعلى سبيل المثال بمناسبة ظهور الغواصات الأمريكية بصواريخها طراز ''بولاريس'' في البحر الأبيض المتوسط في الستينيات، والغواصات الأمريكية بصواريخها طراز « بوسيدون» في المحيط الهندي في الثمانينات فقد كانت مطالبهم دائما تؤخذ بعين الاعتبار في شأن تحديد العلاقات مع دول المنطقة.

يرى بعض الباحثين الغربيّين أن المؤسسات الأكاديمية في التخصصات الدولية تعتبر واحدة من مكونات الإدارة التي كان لها تأثير على السياسة الخارجية السوفيتية، بما في ذلك منطقتي الشرق الأوسط والأدنى. وسيكون من غير الأمانة الادّعاء أن المؤلف كونه موظفًا ثم مديرًا لهذه المؤسسة لن يقبل هذه المجاملة. فالأمر ببساطة أنه ظهرت موضة من الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة تتخذ الخبرات العلمية أساسًا لها في السياسة، وعلى التحليلات الموضوعية من قِبل مثل هذه المؤسسات. ولكن كقاعدة عامة، كانت وزارة الخارجية، والقسم الدولي للجنة المركزية، والمخابرات ووزارة الدفاع، وغيرها من المنظمات تتعامل مع الأبحاث العلمية بقدر كبير من السخرية والاحتقار. إلاّ أنْ الباحثين لم يتمكنوا من الحصول على المعلومات من مصادرها الأولية؛ فبنوا نظرياتهم معتمِدين على المصادر الغربية المفتوحة، وسُمح لهم في كثير من الأحيان أن يستخلصوا استنتاجات كانت تتعارض مع استنتاجات الممارسين، وتحليل الموقف بالتفصيل. ولكن كانت تصل إلى «رأس السلطة» فقط التحليلات التي انسجمت مع مزاج السلطات نفسها. وبهذه الصفة لعبت «مذكرات المبادرة» و«تحليلات المواقف المختلفة» دورًا في ذلك. فلو اختلفوا مع القرار أو مع المزاج العام في المراتب العليا، فإنه في أكثر الأحوال يتم تجاهلها. (مثل الخطاب الشهير للأكاديمي و. ت. بوجومولوف ضد الغزو السوفيتي لأفغانستان.)

وقد عايش مؤلف الكتاب أيضا تلك الأوقات، عندما كان يجب أن تنتهي الجلسات العلنية الدورية للجنة المركزية، وبالطبع المؤتمرات أيضًا إلى «أبحاث علمية» وتصبح «محور للبحث العلمي». فجميع المؤسسات؛ وليس فقط المؤسسات المشتغلة بأمور السياسة الدولية،

كان يجـب أن تتكيف مع هذه القرارات. في الواقـع فإن تجربة «النقد» قد تطورت واقتربت من الكمال، ولذلك في كثير من الأحيان تغيرت المسميات فقط وأسماء الأعمال فقط، ولكن استمرت الأبحاث تسير على نفس النهج القديم. ومع ذلك، فإن رئيس كل مؤسسة أكاديمية يعـرف أن عمله يُقيَّم ويُرفع فوق باقي الأعمال في حالة إذا اسـتطاع تقديم بعض «الكعك الساخن» في أعقاب الجلسة المكتملة الأخيرة أو كلمة زعيم الحزب لكي يرضي القيادة العليا الأيديولوجية للحزب.

إذا تطلبت قرارات السياسة الخارجية أربعة توقيعات؛ فمن الطبيعي أن يتم الاتفاق مبكرًا بين هذه الإدارات على المواقف. فالمواقف السياسـية يحدّدها القسـم الدولي ووزارة الشؤون الخارجية، أما المقترحات الأكثر تحديدًا فإنها تكون من اختصاص الجيش والمخابرات. كثيراً ما ترد على قرارات المكتب السياسي تعليمات محددة حول المبالغ المخصصة، وحجم المساعدات الاقتصادية وكميات الأسـلحة والذخائـر. . . الخ، في نفس الوقت، ويتم الاتفاق على كل الأرقـام، وكثيراً ما يضعون هـذا التوقيع: «مع موافقة وزارة المالية»، «وافقت وزارة ما»، وهذا يعني أنه من المفترض أن هذه الوزارات مستعدة لتنفيذ قرارات المكتب السياسي طبقًا للقانون.

وفي صورة مثالية كانت قرارات المكتب السياسي واللجنة المركزية، والمؤتمرات تتخذ بشكل ودي من قِبل «الدبلوماسـيين من المدرسـة اللينينية»، « الفرسان الذين لا يخافون، ولا يلقي عليهم أحد اللوم، أصحاب الأيادي النظيفة، والرؤوس الباردة والقلوب الدافئة » وهم بذلك «الجنود السوفيت العظماء» وبوجه عام جميع الأعضاء النشطين في الحزب. ولكن في الحقيقة كان الشك يدب أحيانا تجاه هذا الأمر.

الشرق الأوسـط يمكن أن يغلي وينفجر. مشاكل يمكن أن تطرق الباب، وتزعزع المنطقة والعالم، تؤثر بشـكل مباشر على الاتحاد السوفيتي. لكن قرارات المكتب السياسي قد تتأخر لأشـهر وسـنوات. وكان هذا وضع مريح بالنسـبة لمعظم الهياكل البيروقراطية. ويظهر هذا بوضوح في قمة الهرم فبدون قرار من المكتب السياسي يمكنك الانتظار بهدوء وراحة. . . ولا تفعل شـيئا. (في بعض الأحيان ربمّا كان ذلك أفضل بالنسبة للاتحاد السوفيتي ولسياساته). فالمبادرة يعاقب عليها القانون. نعم، لا يسـتطيع أحد أو أي مؤسسـة اتخاذ قرار من تلقاء نفسه، لأن «عمل الجميع أو عمل كل فرد» كان ينظر إليه كأنه لاشيء.

بعد مرور ســنتين أو ثلاث سنوات من وصول ميخائيل جورباتشوف إلى السلطة، عندما تراجع نفوذ الحزب الشـيوعي بوضوح في الحياة السياسـية الداخلية، حدث الشيء نفسه في الشـؤون الدولية. وارتبطت فترة التنشيط المؤقت للقسـم الدولي في اللجنة المركزية مع ظهور أ. دوبرنين في مارس 1986م لمدة سـنتين ونصف في منصب رئيسها – أمين اللجنة المركزية للشؤون الخارجية.

حينئذ، بالاعتماد على جهاز القسـم الدولي، دُرست القضايا المتعلقة بأفغانستان والهند، وجنوب أفريقيا، والشـرق الأوسط، ثمّ وُضعت الأفكار والمقترحات مباشرة على الطاولة أمام جورباتشـوف. لكنها حركت أ. ف. دوبرنين بشكل سريع نسـبيًا، حيث كان مهنيًا للغاية ومحترفًا. ثم انخفض دور اللجنة المركزية للحزب في شؤون السياسة الخارجية بشكل تلقائي مع وصول أ. شيفاردنادزه في وزارة الخارجية.

يقول **ك. بروتيننس**:. . . إن عدم وجود التنسيق منذ فترة طويلة، لا سيّما على مستوى الخبراء، أثر سـلبًا جدًا في السياسـة الخارجية السوفيتية، حتى اللجان التي أُنشئت في المكتب السياسـي (اللجنة الصينية والبولندية برئاسة سوسـلوف، ولجان أفغانستان والشرق الأوسط برئاسة شيفاردنادزه وأوستينوف) اختصت بقضايا الأزمات ولم تتمكن من سد الثغرات.

لم تقدم محاولة إنشاء لجنة العلاقات الدولية بعد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي في هذا الشـأن أي شـيء، إذا ما أخذنا في الاعتبار طريقة تأسيسها وتشكيلها؛ ناهيك عن الانخفاض الملموس في تأثير المؤسسات الحزبية. لم يكن الغرض الفعلي الذي من أجله أنشئت اللجنة واضحًا تمامًا: هل كان لتأسيس هيكل فعلي، أم كان بسبب ذرّ الرماد في العيون؟

وأيًـا كان الأمـر، لم تكن هناك هيئة للتنسـيق أو آلية إعداد مختصة بالشـؤون الإدارية العليا، أو آلية لفحص قرارات السياسة الخارجية. . . . يذكر ك. بروتيننس أن الصعوبات في إجراء سياسـات منسقة تنسيقا جيدًا موجودة، ربما في أي بلد، وتمتلئ مذكرات رجال الدولة الأمريكية بقصص عن المشـاجرات، والصراعات على النفوذ بين مختلف الهياكل والأشخاص ذوي الصلة بالسياسة الخارجية. ولكن تبقى تلك حجة ضعيفة.[6].

عندما عين ف. فالين في أكتوبر 1988م رئيسـا للقسـم الدولي للجنة المركزية، لم يهتم بعمل الجهاز، وركز فقط على أداء المهمات المكلف بها من جورباتشوف. ومرت سنوات من عمل القسـم الدولي. وقلَّ كم المعلومات الواردة إليه من وزارة الخارجية وغيرها من الإدارات.

وعلى أرض الواقع شغلت القضايا السياسية كلا من المجلس الرئاسي، ثم مجلس الأمن التابع للرئاسة ووزارة الخارجية. أصبح دور القسم الدولي مقتصراً على الحفاظ على العلاقات بين الأحزاب مع التمويل المتناقص.

ظل أ. ياكوفليف على رأس اللجنة المركزية للسياسة الدولية التي أنشئت في عام 1988م حتى يوليو 1990م؛ ولكنه كان يتصرف كثيراً كشخص مقرب من جورباتشوف؛ وليس بصفته ممثلًا لجهاز اللجنة المركزية، ثم حل محله ج. ياناييف الذي بقي في منصبه حتى ديسمبر كانون الأول عام 1990؛ عندما فرضه جورباتشوف في مؤتمر نواب الشعب ليصبح نائب رئيس الاتحاد السوفيتي.

وكانت العلاقات بين اللجنة المركزية ووزارة الخارجية في تلك السنوات تثير السخرية. وفيما يلي نورد تعليق موظف وزارة الخارجية على هذا.

دبلوماسي: في الفترة منذ عام 1987 وحتى عام 1989 بدأ الشعور داخل أروقة القسم الدولي للجنة المركزية أن الأرض تهتز من تحت أقدامهم، وبصورة مضطربة قاموا بمحاولات للتكيف مع الاتجاهات الجديدة، وتخطي وزارة الخارجية في الراديكالية. وبطبيعة الحال، تولدت في القسم الدولي للجنة المركزية فكرة التوجهات الاجتماعية، ومنها الزعم أنه في مكان ما يحاكون بسعادة نموذجنا الاجتماعي والسياسي.

منذ عام 1985، أصبح من الواضح أن الوقت قد حان لتغيير هذا المفهوم، وبالتالي تغيير الاتجاه السياسي للشرق الأوسط وأفريقيا. وفي عام 1988م صدرت عن وزارة الخارجية مذكرة بشأن ضرورة وضع حد للتوجهات الاجتماعية على هذا النحو؛ ولكن لا داعي للقيام بذلك علنًا وبشكل صاخب، وهذا يعني أن نتصرف بشكل لا يجعلنا نخسر علاقتنا مع الأصدقاء السابقين، وللحد من كلفة القيام بتحويل للمسار. في ذلك الوقت كانت آلية صنع القرار لا تزال تسير على النمط القديم من ضرورة التصديق على نهجنا الجديد من خلال اللجنة المركزية والمكتب السياسي. فماذا حدث في القسم الدولي للجنة المركزية؟ قال أشخاص معرفون ومؤثرون، تمكنوا من كسب رأس مال سياسي لأنفسهم من الدعاية للتوجهات الاجتماعية: «لا، ليس كافيًا ما تقترحه وزارة الخارجية. يجب علينا قطع علاقتنا مع الماضي بشكل حاسم، لا نستطيع حاليًا أن نكتفي بأنصاف الحلول.» واضطر الوزير نفسه لكتابة مذكرة موجهة لجورباتشوف وشرح بشكل مفصل الدافع من مقترحاتنا. وهدأت الأمور. وحتى

ذلك الحين، في عام 1988م، لاحت في الأفق حالة مضمونها أن المكتب السياسي لم يتخذ أي قرارات رئيسة في السياسة الخارجية، ولا سيما أنه لم يكن هناك أيضًا أي توافق. في الواقع، بدأنا في تغيير مسارنا مع عدم وجود أي مفهوم رسمي تجاه للدول ذات التوجه الاجتماعي".

بعد المؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي، الذي عُقد في يوليو 1990، أصبحت القرارات السياسية بشأن القضايا الدولية تمر بشكل عام على جهاز اللجنة المركزية. وسرعان ما عُيّن اثنان من أمناء اللجنة المركزية لشؤون القضايا الدولية وهم ج. يانابيف وف. فالين- وكانوا جميعًا في حالة ارتباك بشأن: مَنْ هو الزعيم؟.

انتخب كارين بروتينتس النائب الأول لرئيس القسم الدولي، وانتخب أندريه جراتشيف ببساطة بصفته «نائب» في تشكيل اللجنة المركزية. فمَنْ يرأس مَنْ؟ اتخذ المكتب السياسي القرارات السياسية من قبل، وكانت الأمانة العامة تعمل في الشؤون الجارية. لذلك، فقد تمكنت الأمانة العامة في بعض الفترات أن تلعب دورًا أكبر من المكتب السياسي، وخصوصًا عندما كان بعض أعضائها البارزين ضمن المكتب السياسي في نفس الوقت.

في المؤتمر الثامن والعشرين انتخاب عدد كبير من أعضاء المكتب السياسي (24 شخصًا) الذي يجتمع مرة أو مرتين في الشهر. وبطبيعة الحال، بدأت الأمانة العامة في أداء المهام الرئيسة مرة أخرى. إلاَّ أن الجميع كان قد فهم أن جهاز اللجنة المركزية أصبح كالقذيفة الفارغة.

في أوقات ما عندما كنت أزور اللجنة المركزية، وأرى في الممرات المهجورة بعض الأشخاص، وعلى وجوههم تظهر علامات تعبير مهمّة وكنت أنزل إلى البوفية عندما كانوا ينزلون. حتى النقانق المصنعة في ورش خاصة لمصنع ما من اللحوم الحقيقية، كانت تعد وجبة رائعة مقارنة بأمور يتعذر فهمها تحدث في الخارج. ترى أطباق الأسماك المدخنة الساخنة والباردة، والكافيار الأحمر والأسود، ومختلف الخضروات المخللة والطازجة، وزبادي ماركة «ميتشنيكوف»، والحليب المخمر، والمخبوزات والحلويات المختلفة والفواكه. وتقريبًا فإنه منذ نهاية عام 1988 لم يعد هذا البوفيه بسبب فقره يتميز عن باقي البوفيهات المعتادة في الأماكن العامة، على الرغم من أنه ظل أفضل من بوفيهات المؤسسات الأكاديمية.

بالنسبة للعديد من موظفي اللجنة المركزية، تحول تراجع دور اللجنة الى دراما خاصة، فقد توفّر في اللجنة المركزية موظفون أقوياء؛ ولكنهم كانوا عاطلين عن العمل.

obeikandl.com

أنا لا أعرف كيف هو الحال في الإدارات الأخرى التابعة للجنة المركزية، ولكن في القسم الدولي يُختار الأشخاص ذوى المعرفة؛ على الرَّغم من أن هؤلاء كانوا لا يتمتعون بمواهب ظاهرة، أو أُجبروا على إخفائها. وإن كانت لديهم أفكار مبتكرة وجديدة، وجب عليهم أن يخفوها ولا يستخدموها في العمل.

ولسنوات طويلة ظلّوا أصحاب المعرفة المُختصة عن أي مشاكل أو بلدان. (وأشير بين الأقواس أنه خلال فترة توليه منصب مدير معهد الدراسات الأفريقية قام المؤلف بقبول العديد من المستعربين والمتخصصين في الدراسات الأفريقية للعمل من القسم الدولي للجنة المركزية. وأقولها بصراحة: كعلماء في السياسة أو كمؤرخين؛ فقد كانوا أكثر علمًا من علماء المعهد من نفس التخصص). وهكذا تتخذ القرارات عند هذا المستوى؛ حيث لا تلعب الكفاءة أي دور. ويبدو أن هذه ظاهرة شائعة في العالم كله؛ وليس فقط بالنسبة للاتحاد السوفيتي.

وهناك صديق ليّ – وهو عالم موهوب – جاء إلى القسم الدولي للعمل ليس كموظف مُقرِّر؛ وإنّما برتبة أعلى من مستشَار، يمكننا أن نسمّيها "مفكر"، وهو يعادل تقريبًا رئيس القسم في القطاع. وقد حكى ليّ أنه صمد في هذا المكان بضعة أشهر فقط، وأدرك أنه لم يكن المكان المناسب له. وطلب منه أن يقترح أفكارًا لنهج جديد. وقد عمل لمدة شهر تقريبًا، وقدّم الكثير من الأفكار والمقترحات الجديدة، ولكن عندما رأى الفكرة التي اعتُمدت، اقتنع أن هذا كشجرة قلمت بشكل جيد وتحوَّلت إلى عمود تلغراف. فهذه الفكرة التي أُختيرت كان من الممكن كتابتها في خلال بضع ساعات فقط.

موظف في اللجنة المركزية: كنت أعمل مستشارًا في وزارة الخارجية، وبعد ذلك جئت إلى اللجنة المركزية. كان هذا يمثل شرفًا عظيمًا وترقية كبيرة في ذلك الوقت. لم يكن لديّ شك أن هذا العمل سيكون أكثر أهمية من العمل كمستشار في وزارة الخارجية. استغرق الأمر سبعة عشر عامًا، وأصبح بعض من طلابي مستشارين ومبعوثين، وأصبح أحدهم سفيرًا، وبقيت أنا كما أنا مُراجِع في القسم الدولي. لم تعد ليّ أهمية في سن ما قبل التقاعد. وليس لديّ أي مدخرات مالية. الشيء المادي الوحيد الذي حصلت عليه هو شقة جميلة. كان يُعتقد في اللجنة المركزية أنه أمر سيّء أن يكون لديك سيارة خاصة، وفيلا خاصة: قائلين، يجب أن تعطي حياتك كلها لهذا العمل، تعمل يوميًا لمدة 10 – 12 ساعة، وأحيانا تعمل أثناء الليل، وفي مقابل ذلك سوف يؤمّن لك كل ما هو ضروري. أمّا الآن فلم يكن هناك حاجة لأيِّ أحد.

obeikandl.com

ولم تكــن هناك علاقة بين الفرق المختلفة في الهيكل البيروقراطي، بعبارة ألطف، فلم يكن هناك تناغم؛ فقد كان هناك الاختلاف الأكثر شــهرة بين وزارة الشــؤون الخارجية والقســم الدولي للجنة المركزية.

أجاب ب. بونوماريف : على أسئلتي حول هذا بمراوغة شديدة.

المؤلف: هل كانت هناك أي خلافات في العلاقات بين وزارة الخارجية واللجنة المركزية؟[7]

ب. بونوماريف: لا ينبغي أن نتكلم عن هذا. كانت وزارة الخارجية تشــارك في السياسة الخارجية وفقًا لسياسة الدولة؛ أما اللجنة المركزية فقد لعبت دورًا رئيسًا في العمل مع منظمات المجتمع المدني، ومع الأحزاب، وهذا الدور لم تكن تقوم به وزارة الخارجية. ومن أجل التواصل مــع المنظمات المدنية فعّلنا دور لجنة التضامن. كنت في الوقت نفســه رئيس لجنة الشــؤون الخارجيــة في مجلس القوميات من مجلس الســوفيت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشــتراكية السوفيتية. وسافرت لأول مرة إلى الولايات المتحدة في عهد نيكسون.

المؤلف: هل تعتقد أن نهج الحزب والدولة في السياسة الخارجية قد اختلف؟[8]

ب. بونوماريف: كنت أنطلق قبل أي شيء من مصالح الاتحاد السوفيتي. أنا رجل وطني من الاتحاد السوفيتي، وكتبت كثيرًا حول هذا الموضوع.

المؤلف: يُقال أن العلاقة بينك وبين جروميكو لم تكن جيدة جدًا.

ب. بونوماريف: لا ينبغي أن نتكلم عن هذا.

ولكن إذا لم يرغب بوريس بونوماريف في التحدث، فهناك آخرون قد تكلموا.

شخصيات في سياسة كبرى

المؤلف: إذا كانت وزارة الخارجية قد جسّــدت فكر الدولة بكل أيديولوجيتها، واللجنة المركزية جسدت خلاصة الفكرة، كيف تجلى ذلك في العلاقة بين جروميكو وبونوماريف؟

الدبلوماسي: نعم، لم يتجلَّ بأي شكل. الأمر كان مرتبطا بالأشخاص وليس بالأفكار. ويمكنني أن أســوق العديد من الأمثلة التي تؤكّد الكراهية وعدم الثقة المتبادِلتين بين جروميكو

وبونوماريف، وأيضًا الرغبة في إزعاج بعضهم البعض شخصيًا؛ على سبيل المثال: في نهاية فترة ولايته في وزارة الخارجية منع أندريه أندريفيتش بشكل عام إرسال أي وثائق إلى اللجنة المركزية.

كان الأمر يسير في بعض الأحيان هكذا؛ حيث يتصل شخص ما من القسم الدولي للجنة المركزية محاولا معرفة موقفنا؛ حتى لا يحدث ارتباك أو خطأ. وأحيانًا كانوا يعطون وثيقة ما ويسلمونها يدًا بيد على أساس المعرفة الشخصية دون أي رقم. وكان ذلك يعكس الحرب الخفية بين طموحات بونوماريف وجروميكو. ولكني لا أرى دافعًا سياسيًا أو أيديولوجيًا من وراء ذلك.

السفير يو. ن. تشيرنياكوف : استرسل في التوضيح.

يو. تشيرنياكوف: تطوّرت العلاقة بين وزارة الشؤون الخارجية والقسم الدولي للجنة المركزية إلى الأسوأ من أي وقت مضى وصارت أكثر ضررًا على سياستنا في أي مكان، على الرغم من أن العلاقات الشخصية على مستوى العمل بين الموظفين في وزارة الشؤون الخارجية والقسم الدولي للجنة المركزية من الممكن أن تكون جيدة جدًا. كان بونوماريف وسوسلوف يتدخّلون باستمرار في شؤون وزارة الداخلية، في تلك الفترة التي لم يكن جروميكو فيها عضوًا في المكتب السياسي بعد. كان هذان الشخصان من مدرسة ستالين ويمتلكان طموحًا شخصيًا هائلا ودهاءًا، وكانوا متعصبين إلى أبعد الحدود. العداء بين جروميكو وبونوماريف كان قد اندلع في اجتماعات منفصلة عند إعداد وثائق وصنع السياسات.

المؤلف: هل حدث ترابط بين وزارة الشؤون الخارجية واللجنة المركزية كجزء من نظام مجلس الوزراء؟

يو. تشيرنياكوف: على العكس من ذلك تمامًا وقفت الخارجية وحدها. وقد تحدّدت السياسة الخارجية للبلاد منذ عهد لينين واللجنة المركزية. أو بالأحرى، الأمانة العامة، وبتعبير أدق، الجهاز التابع للأمانة العامة خصوصًا في عهد ستالين. ولا يمكن أن تكون هناك تناقضات خاصة. وفي عهد خروشوف كان وضع وزارة الخارجية في السنوات الأولى، عندما أصبح جروميكو وزيرًا، أضعف من القسم الدولي للجنة المركزية. إلاَّ أن جروميكو لاحظ أن العلاقات بين بريجنيف وكوسيجين كانت سيئة، وأخذ جانب رئيسه (أقصد بريجنيف). وبعد 1964م توجّه كليًا تجاهه، لدرجة أنه بعد اتصال من كوسيجين كان إذا تجرأ واحد من رؤساء الإدارات تسليم وثيقة ما لرئيس مجلس الوزراء أمام جروميكو، فإنه يفقد وظيفته بعد ذلك مباشرة، وينكل جروميكو به.

obeikandi.com

ولاحظ الجميع ذلك بسرعة. وفي لقاءات مع الأجانب كانت هناك نزاعات شديدة أكثر من مرة. على سبيل المثال: ذات مرة طلب الرئيس السوري الأسد توريد الطائرات السوفيتية المتقدمة وتحدث بلهجة فظة، مشيراً إلى أن الأميركيين ورّدوا مثل هذه الطائرات إلى إسرائيل. وفي وجود الرئيس السوري، بدأوا في الجدال. وللتخفيف من التوتر، توقفت المفاوضات، وذهبا إلى غرف منفصلة، وقال كوسيجين بشكل عنيف: إن السوريين أناس لا يعترفون بالجميل؛ لقد بنينا لهم السد، وأعطيناهم مساعدات هائلة، ويطلبون المزيد. فمن الضروري أن نرفض طلبهم. أما جروميكو فقد اتخذ الموقف المعاكس فوراً، وقال: إننا لا ينبغي أن نعطي سوريا للأميركيين. وصلنا إلى نوع من التسوية.

المؤلف: في إعداد قرارات المكتب السياسي المحدّدة لسياستنا في الشرق الأوسط، أي من هذه المؤسسات كانت الأكثر تأثيراً: اللجنة المركزية أم وزارة الخارجية أم المخابرات أم الجيش؟

يو. تشيرنياكوف: بصفة عامة، كان أقلهم تأثيراً وزارة الخارجية.

المؤلف: هل هذا قبل أن يصبح جروميكو عضوًا في المكتب السياسي؟

يو. تشيرنياكوف: أعتقد أنه حتى بعد ذلك كان تأثير وزير الدفاع جريشكو أكثر نسبيًا.

وفيما يلي ما قاله أ. **جروميكو** وهو ابن الوزير الراحل في هذا الشأن[9]:

لن أفسر كيف كان العامل الأيديولوجي موجودًا بقوّة في السياسة الخارجية في الفترة الماضية. في تلك الفترة تجنبا استخدام مصطلح "المصالح الوطنية" للاتحاد السوفيتي في التحليل العلمي، ناهيك عن الخطابات السياسية؛ لكن وزارة الخارجية لا تزال إلى أقصى حد نظرًا لخصوصيات عملهم تعكس المصالح الوطنية في سياستنا الخارجية؛ بمَّا في ذلك في الشرق الأوسط. وقد استرشد القسم الدولي للجنة المركزية بالعامل الأيديولوجي أيضًا بكثرة نظرًا لخصوصيات عملهم. من الواضح أنه في سياق عملية صنع القرار في تلك الأيام كان هناك صراع بين اتجاهين. وتسبب هذا في حدوث بعض الاحتكاك بين وزارة الشؤون الخارجية واللجنة المركزية. يمكنني أن أقولها هكذا: حدث التعارض في العلاقة بين القيادة في وزارة الخارجية والقيادة في القسم الدولي للجنة المركزية، أي بين أندريه أندريفيتش وبونوماريف، فلم يكن هناك دفء ولا تقارب في العلاقات بينهما، ولم يحدث هذا مع أندروبوف. وأستطيع أن أقول بشكل دقيق إنه على النقيض من العلاقات الرسمية مع بونوماريف والعلاقات الباردة

ولا سيما مع سوسلوف، كان لدى أندريه أندريفيتش علاقات دافئة وودية حقًا مع يوري فلاديميروفيتش أندروبوف. وحسب فهمي كانت وزارة الخارجية والكي جي بي يمثلان ذراعي الدولة،، وكانت أعمالهم خاضعة بصورة أقل بكثير للنفوذ الأيديولوجي.

المؤلف: وهذا يعني أن قرارات السياسة الخارجية كانت تتخذ في شكل متفق عليه تقريبًا؟

أ. جروميكو: كان نظام صنع القرار لدينا في ذلك الوقت كنظام الشركات. وتضم هذه الشركة وزارة الشؤون الخارجية، وإدارات اللجنة المركزية والمخابرات والجيش؛ أي وزارة الدفاع. وقد توفّر ثلاثة أو أربعة أشخاص في ''القمة'' في المكتب السياسي كانوا يخططون لاتخاذ أهم إجراءات السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي.

ولم تكن صورة العلاقات بين السلطات وردية؛ حتى عندما ننظر إليها من جانب العسكريين.

المؤلف: كيف بدت العلاقات في تعريف سياسة الشرق الأوسط في باحة هذا الرباعي: اللجنة المركزية، ووزارة الشؤون الخارجية، والقسم الدولي وكي جي بي، من وجهة نظر الجيش؟

موظف في المخابرات: أولا، كان العسكريون غالبًا أكثر حذرًا وضبطًا للنفس من الأخريين. . .

المؤلف: لماذا؟

موظف في المخابرات: كانت وزارة الخارجية والمخابرات تقدم المشورة والتوصية والمشاركة في صنع القرار. أمَّا القسم الدولي للجنة المركزية فقد تبنّى الأيديولوجية الشفهية، وكان ينفّذ ويتحرّك في حالات الأزمات، وهذا يعني أن العسكريين كانوا هم مَنْ يدفعون ثمن كل القرارات، هذا أولا. وأنا أعلم، على سبيل المثال، إن رئيس الأركان العامة أوجاركوف – وهو رجل ذكي ومختص– كان ضد دخول قواتنا إلى أفغانستان. ثانيًا: يعرف الجميع أن جروميكو وأندروبوف كانا على علاقة جيدة جدًا، وعملا معًا. واشتدت مواقفهم عندما انضما في عام 1973م في المكتب السياسي جنبًا إلى جنب مع جريشكو. لذلك، تعاونا معًا، وتمكنا من التأثير على بريجنيف لتجاوز كوسيجين والقسم الدولي للجنة المركزية.

المؤلف: لكن ليست وزارة الدفاع؟

obeikandl.com

موظف في المخابرات: ثقل وزارة الدفاع أكبر مما كان عليه، ولكن لكل مشكلة حالتها الخاصة.

المؤلف: وهل هذا ما دفع كوسيجين للتعاون مع اللجنة المركزية، ولا سيّما مع سوسلوف وبونوماريف؟

موظف في المخابرات: على قدر ما أعرف – لا. فقد فعل هذا من تلقاء نفسه. كان شخصية وحيدة ومأساوية. وعلى ما يبدو فإنه من الواضح أنه يفهم الخلل الموجود، ولا يفهم وضعنا بصفة عامة، ولا يعي سياستنا في الشرق الأوسط على وجه الخصوص، ولكن كرجل في أعلى درجات الحذر فقد فضل أن يبقى في حالة ضبط النفس. فقد كان يعلم أنه يجب إنقاذ روسيا، لكنه لم يعرف كيف.

المؤلف: وجريشكو؟

موظف في المخابرات: تقرب إلى الشرق الأوسط عمليًا بطريقة عسكرية؛ لذلك كان من دعاة التركيز على عدد قليل من النقاط. على سبيل المثال، العمل على إعانة جنوب اليمن بشكل كامل وأعتقد أن ذلك سيُفتح لنا البحر الأحمر والمحيط الهندي، والناس هناك قليلون — أي من السهل إطعامهم.

وكان يكره المصريين. وقد ترك طرْد العسكريين السوفيت من مصر انطباعًا مؤثرًا على القيادة العسكرية؛ لأنهم اعتقدوا أن وجودهم بناء على دعوة؛ على الرغم من أنه كانت هناك فوائد من وراء ذلك. اعتبر العسكريون نكسات المصريين ضربة لسمعتهم. وعلى النقيض كان رجال الـ كي جي بي يحبون مصر. وكان من السهل العمل هناك، والحصول على العديد من المعلومات المفيدة، وتبعًا لذلك أيضًا الحصول على النجوم والكتفيات والأوسمة. وبصراحة فقد حذروا من أن السادات سيغير المسار بشكل حاسم.

المؤلف: وكيف تعامل العسكريون مع سوريا؟

موظف في المخابرات: بحذر، في كل وقت كانوا يخشون أن يجرنا السوريون إلى بعض التعقيدات غير المتوقعة التي ستصبح مسؤوليتهم هم، أي العسكريين.

يختلف الموظفون السابقون في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بعض الشيء في تقييم هذا الأمر.

موظف في اللجنة المركزية: تأسس النهج المختلف للجنة المركزية ووزارة الشؤون الخارجية تجاه مشاكل الشرق الأوسـط على أسس موضوعية. في هذا السياق، كان بونوماريف على حق، فقد كانت لقاءات وأحاديث موظفي اللجنة المركزية على سبيل المثال مع الفلسطينيين، سببًا للتعرف أكثر على وجهة نظرهم، مما كان له تأثير على تعاملهم مع الأحداث في المنطقة. أما بالنسـبة لمسـؤولي وزارة الخارجية فقد ظلوا على اتصال مع الإسـرائيليين والفلسطينيين. ولذلك، كان نهجهم أكثر توازنًا، كما كانت لدينا علاقات وثيقة مع حزب توده والمجاهدين. لا يمكنـك أن تكون شـخصًا سـاخرًا باردًا. في اللجنـة المركزيـة ازداد التعاطف مع هؤلاء المقاتلـين بعد وصول تأكيدات أنهم لم يُضطهدوا فحسـب؛ بل تعرضـوا للتعذيب والقتل. كان من الصعب أن نتطلع إلى تبادل للرسائل الودية بين الخميني وجورباتشوف، ورفسنجاني وجورباتشوف؛ على الرغم من أنه في وزارة الخارجية وغيرها من المؤسسات كان يُنظر إلى ذلك كونه أمر طبيعي تمامًا.

المؤلف: ولكن هذا ليس شيئًا جديدًا. كان الأمر يسير في هذا الاتجاه في العلاقات مع الشاة، ومع البعثيين العراقيين.

موظف في اللجنة المركزية: نعم، وماذا حل بالعلاقات مع الشاه. . . ؟ أعدّت قرارات المكتب السياسي بشكل دقيق. لكن عدم وجود الفكر الاقتصادي كان آفة حقيقية. نحن لا نعرف الأرقام الحقيقية، لم نعرف الحجم الإجمالي لمسـاعداتنا الاقتصادية، وكم تشكل النسبة الـتي لم يكـن لها مقابل. أعتقد أنه لم يعرف أحد الأرقـام الحقيقية. فقد كانت فكرة مجردة. فإن صناع القرار السياسـي في كثير من الأحيان أشخاص غير مؤهلين، وخاصة على مستوى المكتب السياسي.

المؤلف: هل يمكن أن نعترف أن اللجنة المركزية مارسـت أكثر السياسـة الأيديولوجية وتحملت المزيد من المسؤولية عن الأخطاء والفشل؟

موظـف في اللجنة المركزيـة: بالطبع، حملـت اللجنة المركزية الفكـرة وكانت أكثر أيديولوجيـة في علاقاتهـا، ومواقفها تجاه الشـؤون الدولية. ولكن أيضًـا لم يكن لدى وزارة الخارجية أفق ولا رؤية للمستقبل. إن مرض وزارة الخارجية قد مهد لكل شيء. لم يكن هناك سـعة أفق. في ظروف معينة بدت اللجنة المركزية أكثر برجماتية. على سـبيل المثال، وصف رجال الدين الإيرانيين الاتحاد السـوفيتي بأنه "الشـيطان الثاني الأعظم". هل كان الرد في

صورة سؤال أو مواجهة، أو تنازلات. انحصر اتجاه اللجنة المركزية في أنه لا يجب الدخول في جدال مع رجال الدين.

ى. روساكوف: كل طير يستلذ بصوته. تبدو ليّ الصورة مختلفة نوعًا ما، ولا يدور الكلام بطبيعة الحال فقط عن الشرق الأوسط، ولكن عن السياسة الخارجية السوفيتية بشكل عام.

بقدر ما أستطيع أن أحكم من خلال تجربة عدد من المشاركين بشكل مباشر في تطوير موقف الكي جي بي، بطريقة أو بأخرى، ونفسه، في الفترة من عام 1970 إلى عام 1980 بشأن العديد من قضايا السياسة الخارجية، خاصة فيما يتعلق بالحد من سباق التسلح، فقد احتلت وزارة الدفاع موقع «الصقر»، أما وزارة الخارجية فقد أخذت موقع «الحمامة»، وأخذ الكي جي بي موقع «الوسط».

لا أستطيع أن أتفق مع النظرية القائلة بأن العسكريين هم فقط مَنْ كان يتحرك، خصوصًا في حالات الأزمات؛ أعني أن يدفعوا ثمن كل القرارات. فقد كان رجال المخابرات والدبلوماسيين مضطرين للتحرك أيضًا، على الرغم من عدم توفر تلك الموارد البشرية والتقنية الكبيرة التي يمتلكها الجيش. سأعطي مثالا واحدًا: منع الصراع العسكري المحتمل في بولندا في بداية الثمانينات من القرن الماضي بفضل جهود يو. أندروبوف من الجانب السوفيتي، وفويتشخ ياروزلسكي من الجانب البولندي.

واسمحوا ليّ أن أذكركم أنه بعد الحرب العالمية الثانية وحتى حرب أفغانستان، شاركت وحداتنا مباشرة لحسن الحظ في الصراعات العسكرية، ونفذت عمليات كبرى قليلة (مثل قمع الانقلاب في المجر في عام 1956، وغزو تشيكوسلوفاكيا في 1968م). فيما عدا ذلك (ما عدا، بالطبع، أزمة الصواريخ الكوبية) كان عملهم مهمًا جدًا، ولكنه كان عمل سلمي «اعتيادي» للحفاظ على الجاهزية القتالية في المستوى المناسب: تمارين ومناورات، وعمل الموظفين، وتطوير معدات عسكرية جديدة. . . الخ، وفي الوقت نفسه؛ فقد شارك الأميركيُّون بحلول نهاية عام 1970م في حربين من الوزن الثقيل: حرب الكورية (ثلاث سنوات) والفيتنامية (أكثر من عشر سنوات).

لم يُظهر العسكريُّون دائمًا ضبط النفس والحذر؛ على الرغم من أن القيادة السياسية السوفيتية حملت مسؤولية عبء سباق التسلح الذي يفوق طاقتها، بالإضافة إلى عبء «الصقور» الغربية، كان العسكريون يمارسون ضغوطًا عليها.

obeikandi.com

كانت المشكلة الأفغانية تشكل حالة خاصة. فمن الممكن تمامًا الادّعاء أن ن. أورجاكوف بصفته قائدًا عسكريًا محنكًا عارض العمليات في أفغانستان؛ ولكن د. أوستينوف كان ممثل وزارة الدفاع، وفي عهده توسّع دور الجيش بشكل كبير (على الرغم من كونه قائد مجمع الدفاع منذ عهد ستالين). وسرعان ما أدرك أندروبوف أن هناك خطأ ارتكب. ومع ذلك من وجهة نظري كان من الصعب جدًا تصحيح المسار بسرعة، وظهرت لدى أندروبوف فرصة للمشاركة بنشاط في البحث عن مخرج للمشكلة الأفغانية عندما أصبح الأمين العام، ولكن رحيله عن الحياة كان سببًا في تجميد الأمر إلى حد كبير، فضلا عن الكثير من الموضوعات الأخرى. ويمكن أن نضيف أنه قد تولى زمام الأمور في الولايات المتحدة في ذلك الوقت الرئيس رونالد ريغان الذي اهتم آنذاك بتصحيح «الأخطاء»، ودشن مرحلة جديدة من سباق التسلح النووي.

وقد كان الجدل الدائر حول أى الأجهزة الأكثر ثقلا وتأثيراً في اتخاذ القرارات يحمل طابعًا مجردًا، فالمؤشر يتغير ويحدّده قبل كل شيء ميزان القوى في المكتب السياسي للجنة المركزية، التي بدورها تؤثر على وزن «الوصي على الأمر» ولا سيّما رؤساء مختلف الإدارات. ومع تعيين أندروبوف في منصب رئيس الكي جي بي اشتد تأثير أجهزة الأمن في البلاد وقوى انتخاب أندروبوف وجريشكو وجروميكو لعضوية المكتب السياسي من دور الإدارات الثلاث. قبل ذلك كانت المهمة صعبة على جروميكو.

أما بالنسبة للتقارب بين أندروبوف وجروميكو، فلا أعلم عنه شيئا؛ على الرغم من أنه كان من المعروف أن رئيس الكي جي بي يكنّ احترامًا لرئيسه السابق. ولكن كما أثبت تشازوف، وأكدته الأحداث اللاحقة (يُعتقد أن أوستينوف لعب دورًا كبيراً في انتخاب أندروبوف أمينًا عامًا)، كانت العلاقة بين أندروبوف وأوستينوف أوثق.

كان للتدهور الحاد في صحة بريجنيف في نوفمبر 1974 بعد لقائه مع الرئيس الأمريكي جورج فورد في فلاديفوستوك أكبر الأثر ليس فقط على السياسة الخارجية (والداخلية)، ولكن أيضًا على وضع السلطة الأولى في البلاد. لذلك قام أندروبوف الذي ترأس في عام 1982م الحزب والبلاد من أجل حل قضايا السياسة الخارجية بالتوجه في كثير من الأحيان بصورة مباشرة إلى رؤساء وحدات المعلومات وغيرها من الوحدات داخل قطاع الاستخبارات، حتى أنه تخلص من أحد أنصاره، وهو رئيس لجنة الأمن القومي ف. كريوتشكوف. وارتبط ذلك بمسألة المفاوضات مع الأميركيين بشأن الصواريخ متوسطة المدى في أوروبا. وحول السياسة

الخارجية منذ وصول ك. تشيرنينكو إلى السلطة، لا يوجد لدي شيء خاص يمكن أن أقوله: كانت السياسة الخارجية تتحرَّك من حالة الجمود، لدرجة أنه أُتيحت لعضو المكتب السياسي إمكانية التقدم ب ''مبادرات ذاتية''، كتلك التي ظهرت خلال اجتماعات م. جورباتشوف مع مارجريت تاتشر في لندن في عام 1984م، وتسببت بقدر ما أعرف في موجة من السخط من جانب ''شيوخ'' المكتب السياسي (ربما باستثناء جروميكو).

بعد أن أصبح جورباتشوف في عام 1985م الأمين العام للحزب الشيوعي، كثيراً أيضًا ما أعطى الكي جي بي العديد من المهام بشأن السياسة الخارجية، أقصد جهاز الأمن القومي، وكانت جميع أمور السياسة الخارجية متوقفة على توقيع رئيس الكي جي بي فيكتور تشيبريكوف حتى دون التنسيق مع وزارة الشؤون الخارجية، ووزارة الدفاع، والقسم الدولي للجنة المركزية للحزب الشيوعي. وعلى الأرجح فقد أجرى جورباتشوف أو مساعدوه استشارات مع مؤسسات أخرى، ولكنهم بدءوا يتخطون الممارسات السابقة بشأن إعداد الوثائق. لذلك، كان جهاز أمن الدولة يعد كتلة من الوثائق لجورباتشوف عشية زيارته.

فيما يخص القسم الدولي للجنة المركزية، أود الإشارة إلى ما يلي:

لعب القسم الدولي دوراً محددًا في تشكيل سياسة الاتحاد السوفيتي في «العالم الثالث»، على الرغم كما يبدو أنه كلما زادت أهمية تلك الدولة، قل هذا الدور. نعم، وكانت قدرة موظفي جهاز اللجنة المركزية على المناورة وأخذ زمام المبادرة، محدودة.

بالنسبة للولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية واليابان، فقد عمل القسم الدولي في الأساس أو حتى بشكل استثنائي على إقامة علاقات مع الأحزاب الشيوعية، التي نادراً ما يُلتفت إلى مواقفها عند اتخاذ القرارات الهامة. وفيما يخص العلاقات السوفيتية الأمريكية، في بدايات السبعينيات عندما كان المرض يسمح لبريجنيف بممارسة مهامه، غالبًا ما كان يتابع القضايا الحيوية، أو من خلال قناة متمثلة في سفير الاتحاد السوفيتي في الولايات المتحدة أ. دوبرنين (الذي كان يبلغ جروميكو) مع هنري كيسنجر.

من وجهة نظرى هكذا بدت الصورة بخطوطها العريضة. ولكن، كانت هناك حالات كانت ولا تزال غير مفهومة تمامًا، مثل بعض القرارات الخاصة بالسياسة الخارجية لا يعرف من أين جاءت وعلى أي أسس اتخذت ومدى ثقل هذه الأسس. ولا أكشف سراً بتوضيح كيف كانت تسير الأمور في جميع الأجهزة البيروقراطية، ففي حالة فشل أحد الأجهزة يبدأ الجميع إلقاء اللوم على بعضهم البعض.

وخلاصة القول ألاحظ أن النتيجة تتحدث عن نفسها: فقد خسر الاتحاد السوفيتي «الحرب العالمية الثالثة» (الحرب الباردة)، بما في ذلك بسبب أخطاء حسابات السياسة الخارجية. يبدو أن «الجاني» الرئيس هو النظام، ولكن قيادة جميع الإدارات ذات الصلة تتحمل المسؤولية أيضًا في ذلك. مع كل أخطاء السياسة الخارجية لجورباتشوف يجب أن تأخذ في الاعتبار أن ذلك كان بمثابة الإرث الذي لا نحسده عليه (أما في عهد بوريس يلتسين في عام 1991 – كانت الأمور أكثر خرابًا).

وأعرض هنا وجهة نظر **ك. م. ترويفتسيف** وهو عالم مستعرب.[10]

ك. ترويفتسيف: بنيت سياستنا في العالم العربي على «التقاطع» بين المصالح الوطنية والأيديولوجية. ومن هنا يظهر التناقض بين المؤسسة العامة – وزارة الخارجية – والقسم الدولي للجنة المركزية، الذي أظهر دائما نوعًا من التعبير عن العقائد الأيديولوجية. من هذا المنظور، فإن الرهان على اليساريين في العالم العربي يبدو مفهومًا.

المؤلف: وهذا يعني أنه بدا لنا أنه في العالم العربي يجب تطوير النموذج الاجتماعي والسياسي لجهاز الدولة العام الأكثر قربًا من نموذجنا. ومن هذا المنطلق لم نستطع إدراك أن السادات – مهما كان الأمر معه – يمثل اتجاهًا آخر.

ك. ترويفتسيف: في بدايات السبعينيات كانت وجهة النظر التي كانت ملازمة لكل واحد منا (وأنا منهم)، تكمن في أن الأحداث في مصر تراجعت بصورة مؤقتة، وأن السادات يخطو خطوات خاصة به، والعالم العربي بأسره يتحرك ببطء إلى اليسار. ويمكن تفسير تلك التقارير المتدفقة التي أرسلها دبلوماسيون (حتى من أجل التضليل) بأنهم حاولوا ممارسة لعبة غير لعبتهم لمسايرة العقيدة الأيديولوجية. أو ربما لم يكن في استطاعة القيادة بالمركز فهمهم على نحو صحيح وهو ما يعد كارثة، ولكنه ليس خطأ العديد من المسؤولين في وزارة الخارجية. في السبعينيات والثمانينات بدأ عدم التوازن لسياساتنا بشأن الوضع في الشرق الأوسط في التنامي عندما تطورت الأحداث خارج إطار المخطط العقائدي الذي توافق بصورة ما مع وقائع الستينيات وبداية السبعينيات. من حيث قوة الاستمرار كان السوريون والفلسطينيين واليمن الجنوبي أكثر قربًا إلينا، وكان العالم العربي يسير في الاتجاه الآخر. ولكن العديد من المسؤولين في وزارة الخارجية انطلاقا من البراجماتية الشخصية رسموا تلك صورة الرامية لإرضاء السلطات. أما القادة. . . فقد التقى بريجنيف مع علي ناصر محمد ووجد فيه صورته الخاصة. وأعجبته، بالطبع، هذه الصورة.

المؤلـف: في نفس الوقت، قام علـي ناصر محمد بناء على نصيحة من سـفارتنا بمنح بريجنيف وسام ذهبي مرصع بالماس.

ك. م. ترويفتسيف: وماذا في ذلك؟ التقاليد في الشرق الأوسط ولدينا هي تقديم الرشاوى والهدايا. هذا لا يتناقض مع أخلاقنا. وبهذه الصورة بدا علي ناصر محمد كشـخص مقرب، وكأنه أحد زعمائنا الوطنيين.

والآن نعطي الكلمة مرة أخرى لهؤلاء الذين يعرفون السياسـة السوفيتية في المنطقة أفضل من أي شخص أخر – وهم مسؤولو وزارة الخارجية.

أحد الدبلوماسيين[1]: أعتقد أننا إذا أردنا الانتقال إلى فئة الدول المتحضرة طبقا للنموذج الغربي التي تمتلك هياكل سياسـية تسـتجيب للأحداث، وتسـمح بممارسة سياسات دولية فعالة، فنحن بحاجة إلى هيئة إدارية عليا لمعالجة وتجميع المعلومات الصادقة والهامة من خلال قنـوات مختلفة مـن أجل مصالح الدولة، وتوصيل توصيات الخـبراء إلى القيادة. وكانت هذه وظيفـة وزارة الخارجية رسميًا؛ وخاصة منذ أوائل الثمانينيات. ولكن نظرًا لطموحات اللاعبين الآخرين، فقد كان التنفيذ دائمًا أمرًا صعبًا للغاية. وغالبًا ما كان وسـيلة مريحة لربط المصالح المؤسسـية التي تعاني منها المصلحة العامة في نهاية المطاف. إن سـلطة الإدارات العليا لديها قدر أكبر من الحرية لتقديم توصيات تهدف إلى المصلحة العامة، بدلا من المصالح المؤسسية.

المؤلف: في السابق كان المكتب السياسي يقوم بهذه الوظائف وهذا الدور.

أحد الدبلوماسـيين: ولكن في الواقع، كان هناك أشـخاص غير مؤهلين متمسـكين بأيديولوجيـة ضيقة الأفق، وبماضيهم، والخبرة التي عفـا عليها الزمن. ثانيًا، وهو الأهم، ماذا كانـوا يفعلون؟! يشـاهدون ويتتبعون بعضهم البعض. ثالثا، كانـوا يقضون الوقت المتبقي لديهم في المشـاكل الداخلية. لم يرتقِ أفقهم إلى مسـتوى الشرق الأوسط. وأنا مقتنع أنه لم يكن هناك مفهوم متماسك لسياساتَ الشرق الأدنى والأوسط طيلة وجود الدولة السوفيتية.

المؤلف: رأيك لا يُجادل. وكانت هناك أحداث مؤثرة. .

أحد الدبلوماسـيين: لقد ارتكبنا بعض الحماقات – كما هو الحال في تركيا وإيران بعد الحرب. لم نكن قادرين على إيقاف هذه الأحداث؛ لأن آلية صنع القرار وأعتقد أن هذا ليس سرًا الآن لم تكن موجودة ببساطة.

1 معظم الآراء الواردة في هذا الفصل على أساس المقابلات مع ممثلي وزارة الخارجية الذين لم يذكر اسمهم، تخص ب. ف. ستيجني وهو نائب رئيس إدارة منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا في ذلك الوقت.

المؤلف: الآلية كانت موجودة، ولكن من الممكن الزعم أنها كانت غير مكتملة، وبطيئة جدًا، وغير متوافقة مع الأحداث والقضايا.

أحـد الدبلوماسـيين: لا! كانت وظيفة بيروقراطية بحتة. كانـت تتوفر فقط رؤية صنع القـرارات الـتي تلبي احتياجات بعض الحلقـات الفردية في جهازنا، مـادام لا أحد يتحمل المسـؤولية. وكان لدينا مجموعة كاملة من الوثائق المجهولـة التي ينظر إليها كوثائق من الدرجة الأولى. على أي حال، كانت الأمور تمر بفضل أنه لم يُهدَّد أي شخص بأي أمر على الرغم من كل «الأخطاء» التي تُرتكب، والتي أضيفت إليها المزيد والمزيد من «الأخطاء» المسـجَّلة بالقلـم الأحمر من قِبَل الموظفيين المقررين غـير الأكفاء. اصطدمت محاولات الخبراء المتقطعة للنظر في التغييرات في الوضع، واقتراح بعض التدابير الاستباقية مع المصالح البيروقراطية للقنوات المشتغلة بأمور السياسة الخارجية في اللجنة المركزية، ووزارة الخارجية والمخابرات ووزارة الدفاع؛ حيث كانت المهمة الرئيسـية لهم هو عدم تغيير أي شـيء، وإعادة إنتـاج القرارات القديمة «المجربة»،«حتى لا يتسبب ذلك في أي شكل من أشكال التوتر في المستقبل. وطبعًا لم يعلنوا ذلك على الملأ؛ أما في العلن فقد كانوا يظهرون العكس. وكانت تلك نقطة الانطلاق الرئيسة لتطوير أي حل أو قرار. ووصلنا إلى هذه الدرجة من الاستهتار الذي كانت فيه الوثيقة المُعَدَّة – بما في ذلك البيان السياسي الختامي، والإعلانات التي ينبغي أن تعبرِّ عن مفهوم العلاقات الثنائية بصورة ما – ينبغي الحصول عليها فقط إذا كانت مجهولة المصدر. في عصر «الركود» لا أحد يسـتطيع استخدام عبارات جديدة في البيانات والإعلانات، إذا لم يكن ليقتبس من البيانات السابقة مع الإشارة للمصدر. حقيقة كان الكل يقتبس من مصدر ما .

هكذا كان يتم اعداد الوثائق المفترض أنها ذات أهمية سياسية. كان هناك مفهوم التظاهر بالعمل بدلا من العمل الحقيقي، وظاهرة السياسات وليس السياسة نفسها، وهذا يخلق الوهم الذي يعرف بمصطلح «عبر المرآة». فعلى سبيل المثال، كانت الحلول الاقتصادية المحلية لدينا كالتالي: مجموعة من العبارات التي لا تعكس الواقع ومخصصة للتوضيح في اجتماعات الحزب والمقالات الافتتاحية. انظر نظام الاتفاقيات الذي ظهر في عهد بريجنيف، ونحن أنفسـنا قد ارتضينا به. عندما شـعرنا أن في منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا نشأ اتجاه مخالف تمامًا لذلك الـذي كان موجودًا في السـتينيات (بمعنى أنه حدث توجه نحـو الغرب، وتطور في العلاقات الرأسماليـة، وخروج على التعاون الوثيق معنا)، حاولنا الحفاظ على هذه العملية بالأسـاليب البيروقراطية البحتة؛ أي الورقية.

المؤلف: أنت لست على حق تمامًا. فإذاكان هذا الاتجاه قد تجلى في الشرق الأوسط منذ بداية السبعينيات بشكل أكثر وضوحًا من أي وقت مضى، فإن اتجاهات الستينيات في أفريقيا اكتسبت مؤقتًا في بعض الأماكن نفسا جديدا إذا صح القول.

الدبلوماسي: حسنًا؛ أعني أولا وقبل كل شيء الدول العربية. لقد وقعنا اتفاقيات للحفاظ على الوضع الراهن على أقل تقدير، ولم يسمح بتخفيض العلاقات على الورق. وبدلا من اتخاذ خطوات ملموسة وعملية لتغيير سياستنا للابتعاد عن مفهوم «اللا سلم واللا حرب»، الذي إن جاز التعبير صار واقعًا ما زال يحدد أعمالنا في الشرق الأوسط في الستينيات والسبعينيات، بدلا من العثور بشكل خلاق على بعض النفوذ، الذي يمكن أن نتعلق به، كان رد فعلنا بيروقراطيًا. وكانت الاتفاقيات، بطبيعة الحال، كالجنين الميت. وعلاوة على ذلك فقد تسببت في خسائر في كثير من الحالات، كما هو الحال في مصر. فقد كانت مجرد خدعة، كان خداع للذات. طالما استطاعوا تثبيتها كما يقولون في اللغة الألمانية plusquamperfectum – منذ وقت طويل انقضى. كان رد فعلنا تجاه الأحداث ضمن منطق الأجهزة دائمًا؛ بمعنى أنه قد ينشأ نزاع ضد إرادتنا في أي من دول الشرق الأوسط. وقد كانت المهمة الأولى بالنسبة لنا استعادة الوضع الراهن، وإعادة كل شيء إلى مساره الطبيعي القديم.

المؤلف: ولكن الرغبة الفطرية من الهياكل البيروقراطية في الحفاظ على الوضع الراهن، إلى التظاهر بالعمل والكلمات، وليس الأفعال بدأت تصل في بعض الأحيان إلى مرحلة الانحلال الكامل منذ النصف الثاني من السبعينيات. كان هيكل السلطة بالكامل يشترط صدور القرار من القمة. وعند القمة لم يستطع كبار القادة حل أي شيء فعليًا؛ ولكن كان ينبغي عليهم أن يلتقوا مع أجانب للتفاوض أو من أجل توقيع شيء ما. كيف حدث هذا؟.

دبلوماسي: ظاهريًا بالنسبة للجمهور، بدا الأمر كله مناسب. فمثلا عندما تجلس أمام التلفاز تشاهد برنامج «فريميا» وترى كيف تسير؛ مثلا: المباحثات السوفيتية اليمنية الجنوبية أو المحادثات السوفيتية الأردنية، وترى الكرملين، والباركيه، والذهب، والكرافتات، والقمصان البيضاء، والبدل الداكنة، كل شيء كما ينبغي أن يكون. ولكن من المستبعد أن يكون أحد قد خمّن أنه لا بريجنيف، ولا تشيرنينكو يعرف حتى مع مَنْ يتفاوضون. كانت المحادثات الأخيرة لبريجنيف مع اليمنيين الجنوبيين في سبتمبر عام 1982، عندما قلده الديكتاتور علي ناصر محمد وسام جنوب اليمن كرمز «صداقة الشعوب»، ووزنه مئتا جرام من الذهب والماس. فقط من أجل ذلك استقبل لمدة نصف ساعة.

وينعكس الانحطاط الكامل في هذه الأمور عندما نرى أن وزارة الخارجية منذ بداية السبعينيات بدأت في إعداد ما يسمى بـ ''خيارات المذكرات الكلامية'' للزعماء. ماذا يعني هذا؟ على الورق كانوا يعلقون عبارات وجمل مثل " صديقي العزيز، ونحن نقدر. . . والآن اسمحوا لِيّ أنْ أتحدث إليكم. . ." ثم تكون هناك مسافة فاصلة كبيرة حتى يفهم أنه ينبغي السكوت في هذه اللحظة. ثم يستمع للإجابة بغض النظر عمّا يقوله المتحدث، وبعد ذلك يلتزم بالنص المكتوب الذي لا يمكن أن يتعارض مع كلام المتحدّث. لم يحدث من قبل أن قام ليونيد إيليتش بريجنيف أو قنسطنتين أو ستينوفيتش بالخروج عن هذا النص. فكانوا فعلا يقرءونه. وكان جروميكو يجيب عن أسئلة محددة. وفي السنوات الأخيرة، كانوا يكتبون لبريجنيف «مذكرات» من خمس صفحات، وكانوا يسمونها «النص الفرس»، وبحروف كبيرة حتى يستطيع قراءتها بالنظارة.

كان هناك لقاء مع السوريين، ومع الفلسطينيين. وأخذ تشيرنينكو يقرأ «مذكرته» بتعثّر. وكان جروميكو يجلس إلى يساره ويقلب الصفحات. ولكنه تثاءب، ولم يتمكن من قلب الصفحة؛ حيث كانت هناك ثلاث فقرات كبيرة. فبدأ تشيرنينكو قراءة الصفحة نفسها بصوت هادئ مرة أخرى، وكان الأمر سيان بالنسبة له. ومن مكان جلوسنا رأينا الذعر الذي بدا واضحًا من هز الكتفين وتهامسهم. ولكن أريد الثناء على المترجم، الذي قال دون أن يغير من تعابير الوجه:«نظرًا للقيمة الكبيرة التي نوليها للاقتراحات التي ذكرناها، أعتقد أنه من الضروري أن أكررها مرة أخرى». وترجم الصفحة نفسها مرة أخرى. ونقل أحد الدبلوماسيين كلمة المترجم بهمس لجروميكو. ولم يلاحظ تشيرنينكو شيئًا.

المؤلف: هل كوفئ المترجم بطريقة ما؟

الدبلوماسي: ربت أحدهم، إذا جاز التعبير، على كتفه[1]. . .

المؤلف: وأندروبوف؟

الدبلوماسي: ضربنا الضربة القاضية، حيث نحى أندروبوف جانبًا ''المذكرة'' وأجرى المباحثات بنفسه، مستوعبًا بشكل سريع مضمونها. وعندما تعب المتفاوضون، قام هذا الشخص (ولكي يتفلسف وهو يجلس على طاولة الباروك، وبعدم اعتناء وضع ساق على ساق) باقتباس عبارات من أفلاطون وديكارت. وكانت هذه بمثابة أمتعته الفكرية، ولكن ليس «المذكرة» سيئة السمعة.

1المترجم هو سيرجي نيكولايفيتش بوكين، قفز بنجاح في السلم الدبلوماسي، وكان سفيرًا في ليبيا ولبنان، وأنهى مسيرته المهنية كنائب مدير منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بوزارة الخارجية لروسيا الاتحادية.

المؤلف: وهل عارض أحد هذا التقييم لأندربوف. . .

الدبلوماسي: حسنًا، لا يجب مقارنته مع بريجنيف وتشيرنينكو. سأعطي مثالا. تم الإعداد لتوقيع وثيقة مع أحد الزعماء العرب، وكانت الوثيقة ستحدد علاقات الاتحاد السوفيتي مع هذا البلد. لن أذكر اسم هذا الزعيم حتى لا أضعه في موقف حرج، لأنه في السلطة الآن. وأقيم غداء بروتوكولي في جناح الاحتفالات بالقصر في الساعة السادسة، لكن بريجنيف حذر جروميكو، بأنه سيغادر في الساعة السابعة إلاَّ خمس دقائق. وانتهى الغداء بشكل سريع، لأنه في العادة يُخصّص له ساعتان. فوضعت الأطباق ثم سرعان ما رُفعت. مرت أمام الأعين أطباق لذيذة. وتمكن الضيوف فقط من التقاط قطعة من السمان مع صلصة التوت البري، قبل أن يقوم النُدُل بسعادة بأخذ الأطباق بعيدًا، حيث كانت تمثل لهم وليمة عامرة. ونظرًا للسرعة فإنه لم يحدث تبادل للأحاديث. وبدأ الوقت ينفد. وفي النهاية عندما كانوا يسكبون الشاي والقهوة، قرر الزعيم العربي مناقشة موضوع توقيع الوثائق المقررة، وبدأ في قراءة فقرة من المشروع. نظر بريجينيف إلى ساعته، وكانت الساعة السابعة إلا خمس دقائق بالضبط نهض دون أن ينبس بنبت شفة إلى أي شخص، وذهب إلى الباب. في البداية أعتقد الجميع أنه ذاهب إلى الحمام وسيعود؛ ولكن عندما توجه إلى البوابة الذهبية، ركض الجميع خلفه: الأمن، وجروميكو، وبونوماريف وغيرهم. وكان العرب يجلسون في حيرة. وتبين أنه في الساعة السابعة ستبدأ مباراة الهوكي، وبريجينيف كان مشجعًا متعصبًا. .

ومثل هذه القصص كثيرة. وفيما يلي المزيد من التفاصيل: كيف يكتبون الخطابات لبريجنيف خصوصًا الموجهة للجمهور؟ متن الخطاب يتألف من صفحة أو صفحتين. وكان يقبل النموذج الحادي أو الثاني عشر من هذه الخطابات؛ لأنه كان ينبغي تسليط الضوء على بعض الأمور، وفي نفس الوقت وجود متانة وصلابة في النص. فمن الصعب جدًا على الإنسان العادي أن يعد مثل هذا الكلام. بعد ذلك ينقض ساموتيكين وهو الموظف المقرر لبريجينيف مثل الديك على مديري في الكريملين: «مَّنْ كتب كلمة ليونيد إيليتش؟»، فيردّ مديري بسرعة: «لستُ أنا. . . لستُ أنا؛ بل هذا، وهو معي». فيقول لي ساموتيكين: «ماذا حل بك، هل جننت؟ كم مرة قلت بأنه لا ينبغي إدراج الأصوات الصفيرية في خطابات بريجنيف! بالأمس قضيت 40 دقيقة في التمرين مع الرجل العجوز على إلقاء الكلمة. ولم يستطع النطق بشكل سليم !»

المؤلف: نعم، والجميع يعرف أن بريجنيف عندما ينطق جملة «الدول الاشتراكية» يقول «النقانق العفنة.»

دبلوماسي: وبعد ذلك كنت أقرأ التحليلات التي أجراها علماء السياسة الغربيين على خطابات بريجنيف وأنا أضحك.

المؤلف: هل درس شركاؤنا العرب الخصائص الشخصية لقادتنا، ونقاط ضعفهم، وميولهم؟

دبلوماسي: من دون أدنى شك. حدد شركائنا بسرعة كبيرة نقاط ضعف بريجينيف، وإنطلاقا من هذا قاموا بفعل أشياء عظيمة؛ وخاصة عند مناقشة القضايا الحساسة مثل إمدادات الأسلحة، وتأجيل سداد الديون، إلخ. على سبيل المثال؛ ذات يوم قال السوريون: «أنت، ليونيد إيليتش، شخصية وزعيم بارز لحركة الشيوعية العالمية، العالم كله يعرفك. منحت 38 جائزة من جوائز الإتحاد السوفيتي». هنا بريجنيف قاطع المتحدث، وقال: ''أود أن أصحح لك، ليس 38، ولكن 45 جائزة''. الشريط المكرر. بعد ذلك، وافق بالطبع على أشياء كثيرة.

المؤلف: أي بسبب المجاملات والإطراء؟

دبلوماسي: نعم، ولكن ليس هذا فقط. هناك شيء من هذا القبيل في العمل الدبلوماسي يسمى «lipservis»؛ وهو تعبير لفظي يشير إلى الولاء لشيء، أو الموافقة على الأمر ما. واستنادًا إلى هذا المفهوم «lipservis» تنجز العديد من الأمور. كان من الضروري ترديد شعارات مثل: ''النضال ضد الإمبريالية''، «التضامن مع الاتحاد السوفيتي، وزعيم حركة التحرر في العالم»، «نحن كجزء من حركة التحرر الوطني العالمية »،«الرغبة في خلق مجتمع اشتراكي» – وهذا يحول تلقائيًا البلد وقادتها إلى أصدقاء لنا. وكل هذا امتزج بممارسة السياسة الحقيقية التي تعارضت مع مصالحنا. . . في نفس الوقت لن أذهب إلى حد القول أن بريجينيف قد فعل شيئًا محددًا أو خطيراً مقابل التملق. . . لا؛ ولكن خلق هذا جوا عاما، وجعل المفاوضين لدينا يسيرون في اتجاه أنه هناك على الجانب الآخر أصدقاء لنا، وأنه من الضروري الاعتناء بالشخص الجيد. إذا كان يحتاج إلى اثنين من قاذفات القنابل، فهولاء أناسنا، ويقدرون كل شيء بشكل صحيح. . . وبالتالي نوافق على تأجيل سداد الديون. . .

المؤلف: والمفاوضون المحترفون؟ هل استوعبوا الموقف؟

دبلوماسي: استوعبوا بشكل ما، ولكن لم يتجاوز الأمر الأحاديث الرسمية. كانوا

obeikandl.com

مهدديـــن. . . لا يمكنهم رفع رؤســـهم، مدركين أن فـــوق رأس كل واحدٍ في كل وقت هناك سيف حاد: التهديد بفقدان المنصب أو الطرد من العمل.

أيد الكثيرون مثل هذه الأفكار والملاحظات بطرق مختلفة.

المؤلف[11]: هل شـــاركت في المفاوضات، عندما عانـــت القيادة من نار «المذكرة» ومن بعدها « نص الحصان»؟.

ي. بيرلين: نعم، أكثر من مرة.

المؤلف: لكن لم يشارك مترجمونا هناك فقط، فالعرب أيضًا كان معهم مترجموهم.

ي. بيرلين: نعم، إنهم يفهمون قواعد اللعبة.

المؤلف: هل كان هناك شعور بالخجل؟

ي. بيرلين: نعم. الكثير منا كانوا يخفون أعينهم ويطأطئون رؤوسهم.

المؤلف: من من قادتنا الذين شـــاركوا في تحديد سياســـة الشرق الأوسط يمكنك تسليط الضوء عليه ؟

ي. بيرلين: كوســـيجين. فقد كان دائمًا صاحب رأي ويدافع عنه. وكان شـــخصًا عنيدً جدًا، ويقود المفاوضات بشـــكل رائع، واستوعب بسرعة حتى الأمور الجديدة عليه تمامًا. ولم أر أحدً أخر بمثل هذه المهارة. صحيح، يوجد أيضًا أندروبوف. لكن أندروبوف لم يســـتطع الكشف عن كل إمكاناته. وكان من المهم أن يأتي أسرع إلى السلطة؛ ولكنه تأخر. . . كان بمقدوره القيام بالعديد من الأمور التي يحاول الكثيرون إدراكها، ولكنه كان سيقوم بها بشكل أكثر ذكاء واتساقا، ولم يكن ليحتار في أمره، ولا ليسمح له بتخريب الدولة، وكان سيتولى منذ البداية واحدًا من أهم القضايا لدينا وهي الانضباط الذي يتوافق مع رغبة الشـــعب لاستعادة النظـــام؛ لكنه تأخر، تأخر. . . ومن المثير للاهتمام أنه قد مرت أعوام في عهد ســـتالين ولم تتلوث سمعته. . . العجوز شيبيلوف. هو أيضا فرصة ضائعة. أطيح به من القيادة، لأنه كما يبدو قد تميز بشدة.

المؤلف: وما هو تقييمك لجروميكو؟.

obeikandl.com

ي. بيرلين: أعتقد أنه يمكن إلقاء اللوم على جروميكو لأسباب كثيرة، منها عدم المرونة، والعناد بتمسكه لمذهب ما، وبعض المعوقات الأيديولوجية.

المؤلف: يمكنني أن أذكر مثالًا من المعتقدات الأيديولوجية لجروميكو، والمستمدة من مذكراته الخاصة: «وغني عن القول أن شولتز (ممثل القوى الرأسمالية المتقدمة)، يعبّر عن أفكار عالم اجتماعي آخر. هذا الشخص إن جاز التعبير مبرمج بكود اجتماعي وسياسي، ومتحدث عن مصالح الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة، فقد خدم بأمانة السلطة الحقيقية التي سعت لتحقيق المركز المهيمن في العالم. فهل فهم أن النظام الاجتماعي والاقتصادي الآخر– أي الاشتراكية – هي نتيجة للتطور التاريخي الموضوعي؟ وهل فهم أن أي محاولات للتضييق على الإشتراكية، أو حتى القضاء عليها تمامًا أمر ميئوس منه؟ لن أحاول الإجابة عن هذه الأسئلة[12]».)

ي. بيرلين: الآن كل هذا يبدو وكأنه صوت من الماضي. لكن لا يمكن أن نسلب من جروميكو مهنيته العالية. فقد كان دبلوماسيًا محترفًا إن جاز التعبير في أسمى معاني الكلمة، مع كل عيوبه، سواء الإنسانية أو غيرها. . . كان يقدر المهنية والاحتراف لدى الآخرين. وهو لا يعرف الشرق الأوسط، ولكن كان مهتمًا برأي الناس المختصة. لكنه لم يحب الشرق الأوسط. في الواقع لم يكن يحب الشرق كله؛ فقد كان يميل للغرب، وأمريكي بحت. ولديه اثنين من المواضيع المفضلة للحديث – الأمم المتحدة والصيد، الصيد والأمم المتحدة. ولم يكن يتطرق إلى موضوعات أخرى في المحادثات الخاصة. على أية حال إذا كان غاضبًا أو هائجًا، كان في الإمكان دائمًا إعادة المزاج الجيد له بالحديث عن الأمم المتحدة أو الصيد، ولكن ليس عن الشرق الأوسط، أو الصراع العربي–الإسرائيلي.

المؤلف: لو استطاع جروميكو المغوار تجميع شجاعته ووقف ضد دخول قواتنا إلى أفغانستان، لكانت تلك من أفضل لحظات حياته. كان من الممكن أن يحرق نفسه ويخسر منصبه، ولكنه كان سيدخل التاريخ من أوسع أبوابه، وسيكون قد اجتاز خطوة عظيمة.

ي. بيرلين: لم يستطع فعل هذا. ولم يستطع الوقوف ضد بريجنيف المريض والمسن. وإن لم تدخل قواتنا في أفغانستان حقًا، فإن أهمية تضحيته لم تكن لتحظى بتقدير أي أحد.

المؤلف: نعم، ربما. لم يستطع التصرف بشكل آخر؛ على الرغم من أن الانفراجة التي كان يدعمها قد خرجت عن مسارها. فهل كان لدينا أشخاص أو مجموعات تعمل على

تعطيل حدوث هذه الانفراجة؟

ي. بيرليـــن: ربمـــا لا. كان الجميع يرى أن الوضع الراهن هـــو ما يعني الانفراجة ولذا لم يكن هناك من يحرص عليها. ولم يكن هناك أي حديث عن فصائل بالمعنى الذي نعنيه اليوم. كان هناك نظام بيروقراطي واحد يدفع الجميع الى تملق السكرتير العام للحزب. لم يكن أحدا معنيا بالمخاطرة.

المؤلــف: قانون البيروقراطية يقول كلما قل عملك وقل مجهودك ونشـــاطك، كان ذلك أكثر موثوقية.

ي. بيرلين: نعم. أكثر موثوقية، وستستطيع العيش بشكل أكثر هدوءًا.

ي. روســاكوف: لا أريـــد أن أبســـط أو أخلط الفـــترة «المبكرة» لبريجنيـــف مع الفترة «المتأخرة» في كومة واحدة، لا سيّما مع تشيرنينكو.

تباطـــأ تطور مرض بريجنيف. ولكن على الرغم من « المذكرات الكلامية»، اتخذت بعض القرارات الخطيرة من الســـلطة العليا في الدولة، وقد عمل جهاز الدولة بشـــكل طبيعي. وفي الواقع كان هذا يخص في المقام الأول العلاقات مع الولايات المتحدة والصين والدول الأوروبية الغربية الكبرى والهند، وحتى فنلندا التي كان يرعاها سوسلوف وفقا لعادته القديمة (أشار إليها عدة مرات في مقالات كبيرة في جريدة «البرافدا») ؛ لكن بلدان الشرق الأوسط بما في ذلك مصر بعد عام 1973 ، بدأت تخرج من دائرة «النخبة». حتى اليابان التي زارها في الستينيات ما يقرب من نصف مجلس وزراء الاتحاد الســـوفيتي، خرجت من هذه الدائرة، بعد أن ماطل اليابانيون في عودة الطائرة من طراز ميج 25، التي هرب بها الطيار السوفيتي.

عمومًا، هذا ســـؤال فلســـفي وسياسي كبير، بشـــأن ما هو أفضل زعيم ضعيف، وقيادة جماعية أو زعيم مســـتبد «يمتلك كل المعرفة»، الذي كان كل شـــيء رهن إشارته، ليس دائمًا ســـديد الرأي، ولكنه زعيم قوي الإرادة، أو ذو همة فاترة متعقلة. في النهاية، لم يتمتع ريجان بذكاء خاص، ولكن في الولايات المتحدة يعتبرونه واحدًا من أفضل الرؤساء الأميركيين.

نعـــم، اضطرت وزارة الخارجية لكتابة مذكـــرات فارغة في مضمونها، واضطرت المخابرات لكتابة الردود على خطابات الأمين العام أو الاحتفال بالأول من مايو، التي لم يســـمع عنها أي شـــخص في العالم. أنا لا أتحدث عن خمس أو ســـت ســـنوات من التحضير للاحتفال

بالذكـرى الـ50 لثورة أكتوبر، والذكرى المئوية علـى ميلاد لينين. وكان العبء لا يُلقى على المراسـلين الأجانب فقط، ولكن أيضًا الدبلوماسـيين وضباط المخابرات. لا حاجة للمبالغة في أهمية كل هذه الضجة (لأن هذا موجود لدى الجميع، فقط انظروا إلى حجم الجهد الذي تكلف به سفارات الولايات المتحدة لوصول السيناتور الثالث). الذي كان يريد، فأنه يعمل، وفي الاسـتخبارات أولئك الذيـن لا يريدون أو لا يمكنهم العمل، كانـوا يجبرون على فعل الشـيء، أو يرسلون إلى «المنفى الشرفي» في بيوتهم، مع عدم السماح له بالخروج عن الحدود السوفيتية.

عندما جاء أندروبوف إلى السـلطة كان لديه العديد من الدوافع. يبدو لي أن السياسـة الخارجية لأندروبوف (والمخابرات جزءًا لا يتجزأ منها) كانت نوع من صمام الأمان الذي سمح له بالهروب من مرض بريجنيف والشجار في المكتب السياسي والدولة غير المستقرة. وطرحت المخابرات نفسـها العديد من المبادرات أيضًا؛ وإن لم تُقبل جميعها، وتعاملوا مع بعضها مثل البطاطا الساخنة وأخفوها بعيدًا، ولكنهم القوا باللوم على التعساء «المتحمسين».

دعونا ننظر بصورة أوسـع على الأفق المتواضعة للاسـتخبارات الأجنبية. هل التحول في العلاقات السـوفيتية الأمريكية إلى اتفاقات للحد من الأسـلحة الاستراتيجية وإزالة التوتر لم يكن بدعة عالمية؟ فعلى أقل تقدير، فإن إزالة التوتر ما يقرب من 10 أعوام وفرت الاستقرار النسـبي في العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السـوفيتي. وساهم في هذا التغيير قيادة البـلاد، وجميع الإدارات بدرجات متفاوتة (جنبًا إلى جنب مع «صقور» الولايات المتحدة)، كما ساهموا في «دفنها».

أما بالنسـبة لأندروبوف؛ فقد كان واحدًا من أولئك السياسيين النادرين الذين جمعوا بين الاهتمام الحقيقي بالتفاصيل مع الرؤية الاسـتراتيجية. وبطبيعة الحال، كانت لديه التحيزات الأيديولوجية الخاصة به، ووضعت مشـاركته الفعالة في الصراع على السلطة بصمتها، وكانت هناك أخطاء؛ ولكن عقليته القوية، والقدرة على مواجهة الحقيقة، والمهارات التنظيمية والرغبة الصادقة لإصلاح الأمور في البلاد لا يمكن إنكارها.

obeikandl.com

في الشأن الأفغاني

ي. روساكوف: أنا أعتقد ولا أزال، إنَّ الإنفراج في العلاقات هو مفيد لكلا البلدين و«للسلام في العالم».

عارضت «الصقور» في الولايات المتحدة الإنفراجة علنًا وبعنف؛ أما في السنوات الأولى فقد كانوا يتعاملون مع الإنفراجة ك «بقرة مقدسة»؛ ولكن داخليًا تسببت في حدوث حساسية شديدة لدى غالبية العسكريين وضباط المخابرات والعديد من الدبلوماسيين، والكلمات الخرقاء في دعمها لم تتوافق دائمًا مع الأعمال؛ وبالإضافة إلى ذلك؛ فسلطتنا التي اعتادت على بعض الأشخاص الذين يعرفون كيفية العمل معها مثل ريتشارد نيكسون، وهنري كيسنجر وفورد، تعاملت بصورة مثيرة لشك مبالغ فيه مع إدارة جورج كارتر (لسوء الحظ، أصبح بريجنسكي مساعدًا له لشؤون الأمن القومي)؛ ولكن مع ذلك وقعت على اتفاقية (الحد من الأسلحة الاستراتيجية) SALT-2 وكثيرًا ما سمعتهم عندنا يقولون: "لماذا هو مسموح للأميركيين، وممنوع علينا"؟ ومن جانبهم، فإن الأميركيين، حتى المعتدلين منهم، تساءلوا: « قمتم بتخزين هذا الكم من الدبابات والتي يمكن أن تصطف في طابور يمتد حتى بحر المانش نفسه، ألا تعلمون أن كتيبة واحدة يمكن أن تمر بجميع أنحاء أفريقيا: من إثيوبيا إلى جنوب أفريقيا».

على أي حال، أصبح الغزو السوفيتي لأفغانستان المسمار الأخير في نعش الوفاق. وقد رقصت «الصقور» الأمريكية تقريبًا للاحتفال: لقد تحول الوفاق إلى عراك، و«الحمائم» التي دعت لعدم المبالغة بشأن «التهديد العسكري» السوفيتي صارت مرتبكة، ومهد الطريق إلى ريجان في البيت الأبيض ومرحلة سباق التسلح (تجدر الإشارة إلى أن السبب الرئيس لانتصاراته في عام 1980 كانت العوامل الداخلية، والأزمات الاقتصادية والنفطية، والاستيلاء كرهائن على موظفي السفارة الأمريكية في طهران، وحتى هجوم ريجان على الاتحاد السوفيتي لم يكن عائقًا).

كان هناك سؤال يشغلني (وعلى ما يبدو أنه لا يشغلني أنا وحدي فقط): هل أثرت في السلوك السياسي لقادتنا عوامل مثل العرق، وديانة أسلافهم، والتعاطف العرقي أو الديني أو

الكراهية؟ هل الديانة الإسلامية لآباء أحد الزعماء السياسيين جعلته مؤيدًا للعرب؟ هل كانت تظهر على سبيل المثال معاداة للسامية في تصرفات أو أفعال أي زعيم؟ الملاحظات الشخصية والاتصالات مع «السلطة» التي لم تكن متكرّرة يمكن أن توضح أن « الشوفينية العظمى الروسية ومعاداة السامية قد ظهرت في الأمور الحياتية، كشف المسلمون عن إخلاصهم لبعض المُثل الإسلامية. ولكن في السياسة كانت هذه الأمور نادرة. وكان المنصب هو السمة الغالبة على سلوكيات أولئك الذين ارتفعوا إلى قمة سلم الحزب والدولة: ما المطلوب فعله وكيفية القيام به من أجل التحرك خطوة أخرى أو الحفاظ على المكاسب. ولأجل هذا ضيعوا كل قوتهم وطاقتهم ووقتهم. لو كان إظهار الولاء للدين أو العرق سيساعدهم، للعبوا على هذا الوتر بالتأكيد (كما يُفعل الآن بكل استهتار). لو قالوا من أجل الترقي في المناصب: عليك الذهاب إلى كنيسة أو مسجد أو معبد يهودي، لذهب. ولكن كان الإلحاد وكان الجميع أتباعه جزءًا من الدين المعلن رسميًا. وكان جزءًا من الدين «الإخلاص لمبادئ الشيوعية والحزب الشيوعي»- والجميع كانوا مخلصين.

المؤلف: هل اصطدمت ذات مرة بقيادة معادية للسامية؟

موظف بجهاز المخابرات: أبدًا، فمعاداة السامية قد تعيق الترقي، وبالتالي تخلص منها؛ لأسباب سياسية في السياسة الداخلية، اعتبر اليهود مجموعة من السكان غير موثوق بهم. ولكن لم يكن هذا نتيجة للشحن العاطفي؛ بل حدث على أساس حسابات سياسية باردة.

المؤلف: ولكن بعد ذلك تشكلت دائرة مفرغة؛ فأنت تعتبر شخص ما ليس محل ثقة وكان يتصرف بشكل يجعله ليس محل ثقة أكثر فحينئذ تعتبره بأنه ليس محل ثقة أكثر. . . الخ. وهذه تعتبر سمة من سمات المجتمع الاستبدادي.

موظف بجهاز المخابرات: بدون شك. في الجهاز لدينا وكذلك في كي جي بي استُبعد أشخاص من العمل في شؤون الشرق الأوسط، ونقلوا إلى مناطق أخرى العديد من رجال المخابرات اليهود الموهوبين. وكان غير عادل للغاية.

المؤلف: تذكرت اليهودي إيليا رابينوفيتش، رجل المخابرات العسكرية والمستعرب، الذي تقابلت معه في فيتنام بفترة وجيزة قبل حرب الأيام الستة 1967. وفي أثناء محادثاتي معه تنبأ ليَّ بشكل عام كيف ستتطور هذه الحرب. وبالفعل شاهدت هذه الأحداث على بعد آلاف الكيلومترات من هذه المنطقة. ولكن هل كل هذا يعني أن الموقف السياسي تجاه إسرائيل قد تلون بمعاداة السامية؟

موظف بجهاز المخابرات: أبدًا.

المؤلف: وهل سمح قادتنا بالأخذ في الاعتبار إمكانية تدمير إسرائيل؟.

موظف بجهاز المخابرات: أبدًا.

المؤلف: هل أنت متأكد؟.

موظف بجهاز المخابرات: على الإطلاق. ربما في هذه الحالة كان هناك أيضًا حساب عملي بسيط: تخلص غدا من إسرائيل، وبعدها بيوم سينسانا العرب.

ومع ذلك، في مقابلة مع المؤلف، قال أ. ي. بوفين المعلق السياسي السابق في جريدة ''إزفستيا''، ثم السفير في إسرائيل أن معاداة السامية مع ذلك أثرت على الموقف من إسرائيل من قِبَل عدد من القادة السوفيت. [13]

الدبلوماسيون؛ المزايا والعيوب والإمكانات

كان السفير ومازال هو الشخصية الرئيسة في السلك الدبلوماسي في الخارج. ويسلم أوراق اعتماده في حضور رئيس الدولة ويعاونه موظفو السفارة. منذ أيام بطرس الأول كان السفير مساوٍ في الرتبة مع المارشال. والآن في الاحتفالات الوطنية يلتقي الضيوف في حفل الاستقبال في زِيٍّ أسود أو أبيض (حسب المناخ) مع جديلة الذهب وغيرها من الأوسمة والنياشين. وبعض السفراء ذوي الأهمية الخاصة كانوا يرتدون زيًا خاصًا أكثر من المعتاد؛ حتى في المناسبات الأقل رسمية.

كان الجميع ينظر الى السفير بوصفه إلها وأبا وقائدا عسكريا. ووفقا للتعليمات السرية كان كل. مسؤول سوفيتي- باستثناء رئيس مجلس السوفيت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، ورئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي- يخضع للسفير.

أتذكر عندما أيقظوا فاسيلي فيدوروفيتش جروبياكوف — السفير في تركيا — وكان ذا خبرة وحكمة، باتصال من وزارة الشؤون الخارجية التركية وأخبروه: دخل الطراد السوفيتي من بحر إيجة دون سابق إنذار في المياه الإقليمية لتركيا، وصار على مقربة من مضيق الدردنيل. وحسب الشروط التقنية الخاصة بالاتفاقية التي تحكم النظام في مضائق البحر الأسود، كان ينبغي الإخطار مقدمًا من هيئة الأركان العامة من خلال السفارة السوفيتية. وقد قام الأتراك

بالفعل بعمل اتصال هاتفي مباشـر مع قائد السـفينة، واقترحوا على جروبياكوف التحدث معه. ارتعشـت أيدي فاسـيلي فيدوروفيتش الذكي والحذر، عندما صرخ بصوت عالٍ وكان يحمل سماعة التليفون بصعوبة وقال: «يحدثك جروبياكوف السـفير فوق العادة والمفوض من الاتحاد السـوفيتي في جمهورية تركيا! جميع المواطنين السـوفيت الموجودين في الأراضي التركية يمتثلون لأوامري،! أنا آمرك أن. . . ». «أنا لا أخضع لأوامرك، ولكن أخضع للقائد العام». «عليك أن تطيعني!!! أنا آمرك: تحرك فوراً خارج المياه الإقليمية لتركيا، وأنتظر الأوامر التالية»، وكان قائد الطراد يمتلك من الذكاء الذي جعله يرجع من حيث أتى.

في الواقع، أن أي سفير يدرك أن مكانه الحقيقي في التسلسل الهرمي الحزبي في الدولة أقل مـن العديد من الوزراء القادمين في زيارة وغيرهم من السـلطات العليا، لذلك كان يتصرف وفقًا لذلك.

وكان فاسـيلي فيدوروفيتش جروبياكوف هو نفسـه مَنْ تحمل الفظاظة الجامحة من أحد وزرائنا، الذي لم يفق من سـكره طوال مدة زيارته لتركيا، ويخرج بسـرواله إلى بهو فندق فخم حيـث كان يقيم، متسـببا في إخافة السـيدات، يتحدث بالهـراء في الاجتماعات. أغلق الأتـراك عيونهم تجاه ما يحدث لأنهم كانوا بحاجة إلى هذا الوزير. وصمت الصحفيون الأتراك الماكرون والصارمون تجاه تصرفاته الغريبة. ولم ينم الوفد الدبلوماسي المرافق له ليلة واحدة. وقد حاول فاسيلي فيدوروفيتش إعادة الوزير إلى جادة الصواب، وهو يخضع له رسميًا. قام السفير بالسيطرة على نتائج اللقاءات فيما تحمل الكثير وصبر على تصرفات الوزير في صمت لعلمه أنه في حال نجح الوزير في إهانته في حضور بريجينيف أو كوسـيجين أو جروميكو فسـيحتاج الى وقت طويل لإصلاح الأمر.

كان مصير السفير يعتمد على رأي الضيوف رفيعي المستوى القادمين من موسكو. ومن خـلال العمل اليومي، كان عليه أن يأخذ في الأعتبار التأثير الرسمي، والعلاقات الشـخصية والعائلية، وأحيانا الكفاءة وقوة شخصية رؤساء إدارات الكي جي بي والمخابرات التي كقاعدة عامة كانت «تحت سقف» السفارة، وكذلك رأي كبير المستشارين العسكريين أو القائد العام للقوات السـوفيتية، إن وُجد في البلاد. وأحيانا رأي سـكرتير الحزب المرسـل من قِبَل اللجنة المركزية، إذا ما اتضح أنه من ذوي الخبرة و"الذئاب" المتعصبين، وإذا لم يكن السـفير هو مَنْ اختاره. وجميع الدبلوماسـيين الذين كنت أعرفهم بدون اسـتثناء، قالوا لي بصوت واحد أن المناورة بين موظفينا كانت تمثل دبلوماسية أكثر تعقيدًا من العلاقات مع قيادة البلد المضيف.

وكان هناك مَنْ ينتقد هذه الممارسات بشدَّة، على الأقل بالكلام.

ن. ج. إيجورتشـيف[14]: عندما يتحدثون عن الأجهزة ومنها الخارجية وكونها غير ذات أهمية ولم يكن أحد يعتبرها فإنه باستطاعتي القول إنه عندما كان الدبلوماسيون يتبنون موقفا مبدئيا ويدافعون عنه كان الجميع يحترم ذلك ويلتزم به ولكن المشكلة أنه في كل العصور بما فيها حقبة بريجنيف وحتى يومنا هذا كان النفاق والتملق وانعدام المبدأ هو السائد. وأتذكر أنني وأحد المسؤولين الكبار في وزارة الخارجية (لن أذكر اسمه) كنا نجلس على طاولة واحدة في منتجع — قالت زوجته إن أكثر ما كان يزعج زوجها أثناء عمله في الخارج هو معرفة ماذا تريد موسكو منه

المؤلف: كل ذلك صحيح، فما هو الموقف الذي يمكن اعتباره مبدئيا في الوقت الحالي؟ وهل كان وجود مبدأ أحيانا أكثر فظاعة من عدم وجوده؟

أعرض الآن ما قاله أحد الخبراء من موظفي وزارة الخارجية.

الدبلوماسـي: يعتبر المستوى المهني والإنساني ومستوى الذكاء للسفراء واحد من الحقائق التي نادراً ما نتكلم عنها. ولكن كان لها تأثير على سياستنا في منطقة الشرق الأوسط؛ فعلى سبيل المثال كان لدينا سفير ضعيف للغاية انتدب في وزارة الخارجية في عهد أندري فيشينسكي، بمثابة النائب العام العسكري، كانت هوايته الكتابة بخط اليد عن صفات الموظفين والوشاية بهم. لم يكن يمتلك الكفاءة ولا البراعة ولم يكن على دراية بظروف البلد. وطلب منه قادة البلاد خمس مرات إعداد تقارير عن الموظفين، ولكن بسبب الطموحات المؤسسية لدينا، أو لأن لديه علاقات رفيعة المستوى في موسكو لم يكن هناك مَنْ يقدم تقارير بشأنه. وبطبيعة الحال، اقترنت العلاقات السياسية لدينا بعواقب مأساوية.

المؤلف: حسنًا، لكن ليس سفراء الاتحاد السوفيتي هم مَنْ يحدد وتيرة الأحداث في أي من الدول العربية!

الدبلوماسـي: بالطبع ليس السفير. ولكن كان ينبغي عليه اتخاذ خطوات وقائية لتأمين مصالحنا ولو على المدى القصير. لم أكن أتحدث عن ذلك لو كانت حالة واحدة؛ ولكن كم من النكات والحكايات التي نعرفها عن سفرائنا أصحاب المناصب الفخرية في الخارج، كان شغلهم الشاغل اضطهاد الطهاة والخدم من حولهم، وتحريض الدبلوماسيين بعضهم على البعض، ولكن أيا منهم لم يعِ الهدف من مهمته. لم اختير لهذا البلد؟ وما مهامه السياسية؟ وما هو المجتمع الذي يعيش فيه وثقافة الدولة التي تم تكليفه بالعمل فيها.

المؤلف: هل يمكنك مقارنة سفرائنا هؤلاء مع السفراء من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا؟

الدبلوماسي: هناك كان السفراء مختلفو المستوى أيضًا. ولكن أود أن أقارنهم مع الجيل الجديد من كبار دبلوماسيينا. يوجد الآن في نصف دول الشرق الأوسط سفراء مهنيين، وكأنهم السماء والأرض، إذا ما قارنا بينها وبين مرشحي الأحزاب.

سوف أقطع الحوار مع الدبلوماسي المجهول حتى أنقل كلمة إ. شيفاردنادزه. «عندما جئت إلى وزارة الخارجية، اعتمدت في تقييمي للأوضاع في الشرق الأوسط على تقديرات المهنيين. يقول لي: أقدر كثيرا معارفهم وخبراتهم. غير أن الاحترافية والمهنية تقتضي أطرا محددة في التفكير وسلوكا متحفظا بدرجة طبيعية. لدى المهنيين معتقدات محددة وأطر نمطية ينبغي تجاوزها إذا ما شئت التحرك قدما للأمام.»[15]

والآن فلنستمع إلى رأي السفير **يو. ن. تشيرنياكوف**. [16]

يو. ن. تشيرنياكوف: كل شخص مهني يغار من المهني الآخر. عندما كنت سفيراً في سوريا، في البداية كنت خائفًا من المستعربين لدينا، كنت أعرف الشؤون الأميركية والقضايا العربية من الزاوية الأمريكية. واعتقدت أن المستعربين يعرفون كل شيء أفضل مني بكثير، مما سيتسبب في أن أجد نفسي في موقف حرج. ثم بدأت أخاف بشدة من «عروبتهم» المفرطة، هؤلاء انسلخوا في الحياة العربية لدرجة أنهم استطاعوا تصوُّر هذا العالم كما كان حقًا. كانوا يقيمون كل شيء من وجهة النظر العربية لا من وجهة النظر السوفيتية.

المؤلف: تعد هذه المأساة القديمة لوزارة الخارجية، أقصد أن مَنْ بدأ بالعمل في الغرب، فإنه يرفض تغيير وجهته، والمستشرقون يظلون كالعادة كما هم مستشرقين. هل تذكر الفكاهة التي تبنى على التساؤل: لماذا لا يوجد في وزارة الخارجية «نادي المرحين والدهاة»؟!

لأن المرحين يتواجدون في آسيا، وأصحاب الدهاء في أوروبا. ويمتلك المستعربون أيضًا وجهات نظر أوسع. ولقد التقيت مع المتخصصين في الدراسات التركية لدينا، وكانوا قد قضوا طوال حياتهم في تركيا، وبصفة عامة فإنهم لم يزوروا أيًا من البلدان الأخرى. وتلك بالطبع نكبتهم وليس ذنبهم.

obeikandl.com

يو. ن. تشـيرنياكوف: والمتخصصون لدينا في الدراسات «اللاتينية» هم أناس مخيفون، ويعتقدون أنه في العالم لا يوجد سوى أمريكا اللاتينية. أما من يعمل في إفريقيا فهو لا يصبح إفريقيـا حيث أن النفوذ الغربي هناك قوي جـدا. ويجب أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار وتنظر بأفق أرحب للأشياء.

ولكن مرة أخرى نعود إلى حديثي مع الدبلوماسي المجهول.

الدبلوماسـي: في عملنا الدبلوماسـي كثير من الفن. الأمر يعتمد على الشخص نفسه وسماته الشـخصية. ولذا فإن أكثر ما يبعث على السـعادة بين الدبلوماسيين هو تولى القادة الحزبيين والحكوميين الفشلة المناصب العليا... في بلد ما ترى النظام ينهار وتتحدث الصحافة العالميـة عن ذلك فيما تصر سـفارتنا بعناد على أنه لا شـئ قد حدث وأن الأمر مسـتقر ومستتب تماما.

المؤلف: أستحضر هنا كلمات يو. ن. تشيرنياكوف: «كان عندنا سفير، عمل أولًا في دولـة عربية، ثم في دولة أفريقية. كان أحمقًا للغاية وعدوانيًا جدًا، وكان أمثاله قلائل في وزارة الخارجية. وكان يتدخل بشـكل سافر في شؤون البلاد التي انتدب فيها. وكان يتكلم بطريقة لاذعة عن رئيس الدولة، وسـجلت كلماته على شريط وقدم تقرير لرئيس الدولة الذي بدوره أعلن على الفور أنه شخص غير مرغوب فيه وأراد قطع العلاقات معنا. طار السيد ميكويان الى هناك لإنقاذ الموقف وهو شخص رائع وأكثر دهاء من بيري."

الدبلوماسي: كان لدينا الكثير مثل هؤلاء السفراء في الشرق الأوسط، وأن أمكن القول فمعظمهم كانوا كذلك بعد الجلوس لمدة سـنة أو سـنتين، يبدأ هذا ‹السياسي› في الاعتقاد بأنه قد اسـتوعب كل شـيء، وينتفخ مثل الضفدع، ويدعى أنه هو مَنْ «يشكل» السياسة الخارجيـة للاتحاد السـوفيتي في هذا البلد. وغالبًا ما كان يعلم قيادة البلد المضيف أسـلوب العيـش، ولم تتضاعف طموحاته الحزبية إذا جاز التعبير والأيديولوجية لمرة واحدة؛ بل زادت عشـرة أضعاف. واستندت تقاريره السياسـية المهمّة في البلد التي يوجد بها على التعويذات الحزبية الجنسية البيروقراطية. وكانت هذه التعويذات تسير بصورة مستمرة، ولكنها كانت آمنة ومضمونة بالنسبة له.

المؤلف: وحتى الآن ما زلت مستمرة.

دبلوماسي: ويتوقع هذا البيروقراطي البارع الجالس لمدة طويلة على كرسي السفير مَنْ سيقرأ تقريره، لذلك كان يكتب فقط "ما يرضيه". ويذكر أسماء قادتنا ويحرق البخور.

الدبلوماسي: كان يمكن للسفير أن يسمح لنفسه بمجموعة واسعة نسبيًا من الانحرافات عن السلوك العادي، بدءًا من السرقة وانتهاءً بالعشيقات، ناهيك عن الكذب السياسي. وكان يمكنه أن يتجادل مع شخص ما في مستواه، لشحذ قضية ما بطريقة أو بأخرى؛ ولكن أن يشكك في النظام والأساطير والإرشادات كان يعني رفع رأسه ووضعها تحت سيف النظام الدائر باستمرار، وبالتالي تقطع رأسه؛ يحذف اسم السفير من بيان الأسماء تمامًا. الجميع يعرف قواعد اللعبة، لذلك التزم كل منهم بها.

المؤلف: درست قائمة السفراء في الشرق الأوسط بعد الحرب. وكان 60% منهم مرشحي الأحزاب .

الدبلوماسي: الشرق الأوسط منطقة غير مميزة، فكان لدينا نسبة مستقرة من سفرائنا تتراوح بين 30 – 40 في المئة. ولم تدخل الدول العربية أبدًا مع استثناءات قليلة في ما يسمى «صندوق المنح». كانت دول صعبة. وكان ينبغي العمل، وإذا أخطأت، من الممكن أن تحرق. وهذا عكس السويد أو كينيا حيث كانت الأمور أكثر هدوءًا.

والآن دور **ف. ب. بولياكوف**.

ف. ب. بولياكوف:[18] لن أتفق أبدًا مع تأكيد بعض الكتاب الغربيين، والبعض الآخر في روسيا اليوم، الذين يزعمون أننا مَنْ حرك السوريين واليمنيين الجنوبيين، وحددنا لهم سياستهم الخارجية. فهذا غير صحيح، لأننا عملنا معهم للوصول إلى تفاهم متبادل، دون التدخل في الشؤون الداخلية. ويمكنني أن أذكر هنا مثالًا على ذلك: كنت سفيرًا في جنوب اليمن. ودعاني الراحل عبد الفتاح إسماعيل، وقال لي: «أنت تعرف بالتأكيد أنه في المستقبل القريب ستعقد في الجزائر القمة العربية لرؤساء الدول والحكومات. ماذا نفعل؟ هل نشارك أم لا؟» ولقد كانت بيننا علاقة جيدة جدًا، قلت له: « لا أستطيع تقديم المشورة. » فقال: « أنا أتكلم معك ليس بصفتك سفير؛ بل كصديق». فأجاب: «لا هذا شأنكم، وشأن قيادة جنوب اليمن في تحديد الرغبة من المشاركة أو عدم المشاركة. لو قلت لك شيئًا، فسوف تستند على رأيي في المكتب السياسي، وتقول ها هو السفير السوفيتي قال وقال " أعتقد أن جميع سفرائنا يحافظون على هذه القواعد، فقد كانت هناك استثناءات. ولكن أطيح بهؤلاء السفراء بسرعة ".

obeikandi.com

ويحكى **يو. ن. تشيرنياكوف.**

يو. ن. تشيرنياكوف:[19] سأحكي كيف عُينت سفيراً في سوريا. عندما عاد إلى موسكو كوزنيتسوف (النائب الأول لوزير الخارجية) بعد زيارة قام بها إلى دمشق، كانت الإقالة الفورية لمحي الدينوف السفير في سوريا واحدة من المقترحات الرئيسية له؛ لأنه يضّر سياستنا. بدأ هؤلاء في البحث عن شخص لإرساله إلى سوريا. وجروميكو – رجل صعب، وحاد. في فترة من الفترات كانت علاقتي معه سيئة، ثم بعد عدة مشادات بيننا، بدأ يعجب بيّ في تحول غريب.

وحينئذ كنت أمين عام وزارة الخارجية، وكان عملي ممتعًا جدًا. لم أرد الذهاب إلى سوريا؛ لكن جروميكو خلص إلى أن تشيرنياكوف ليس غشاشًا، ثم استدعاني عنده وقال: أنه يجب علينا أن نغير سفيرنا في سوريا على نحو عاجل، لأنه ورطنا وورط السوريين وورط نفسه. ولكنه يعمل هناك منذ 11 عاما ، وقال: «لقد فكرنا كثيراً، وقررنا أنه من الضروري أن أرسلك إلى هناك»، فقلت له أنه ليس لدي أي علاقة بالشؤون العربية، وأنا لست من المستعربين. فقال:«من الضروري ألا يكذب المرء، ومثل هؤلاء قليلون لدينا. . . سافر إلى هناك لمدة عام أو عامين» وبعد بضعة أيام اتصلت بكريوتشكوف، الذي كان آنذاك مساعدًا لأندروبوف. وفي عام 1956 عملنا معًا في المجر، وعرف بعضنا البعض جيدًا، ووصلني للتحدث على الهاتف مع أندروبوف الذي أخبرته أنني عُينت في مكان جديد وصرت سفيراً في سوريا. فقال يوري فلاديميروفيتش متعجبًا: «هل تترك منصب الأمين العام لوزارة الخارجية لتذهب إلى هذه الحفرة؟» قلت: «هذه ليست حفرة. نحن نعتبرها نقطة مهمة بما فيه الكفاية ». «حسنًا، اذهب، سوف تكتب الحقيقة، لأنه يوجد من السفراء من يكذب، ويسبب لنا الضُّرر. على سبيل المثال، (ذكر اسم أحد السفراء في دولة كبرى في أوروبا الغربية). » كنت أعرف أندروبوف رجلًا متحفظا للغاية، وهو يعطي تقييمات حذرة ومتوازنة للآخرين. وعلى ما يبدو أن ذلك السفير قد تسبب في كثير من الإزعاج، ولكن هذا لم يمنع من الانتقال إلى غيرها من البلدان الأوروبية الكبرى؛ حيث أمضى أكثر من 10 سنوات.

كانت مهمة نقل المعلومات الموضوعية والتي يكلف بها الدبلوماسيون في الخارج تبدو صعبة التحقيق. فما الذي ينبغي نقله: هل ما يحدث في الواقع أم ما يرضي القيادة؟ أغلب الظن أن الأغلبية من السفراء اختاروا الحل الثاني. لا أستطيع أن أتخيل دبلوماسيًا منشغلًا بمنصبه وآراء السلطات العليا عنه يجرؤ على نقل المعلومات بانتظام حتى من دون التعليق عليها، وتكون مخالفة للإرشادات المكتوبة وغير المكتوبة. فكان من الممكن دائمًا تجميع

الحقائق المؤكدة لصحة الفكرة المقترَح عرضها على «السلطات العليا» أو في أسوأ الأحوال اختلاقها وتلفيقها. وهكذا تصرف المسؤولون من مختلف مستويات التسلسل الهرمي عند نقل المعلومة التي حصلوا عليها، وتمريرها من خلالهم إلى «السلطة الأعلى». وتشكلت علاقات المسؤولية المتبادلة.

نعود مرة أخرى لكلام **ي. د. بيرلين.**

ي. بيرلين: 20 يوليو 1970. عشية زيارة عبد الناصر وصلتنا رسالة مشفرة. أمسكت بها في يدي. لن أقول من أي بلد ولا كيف وصلت ولكنها من شخص مسؤول جدا. ويتحدث مضمون الرسالة عن خطة وضعتها القيادة المصرية إما أن يلتزم عبد الناصر بتنفيذها أو يتم خلعه وتنصيب شخص آخر مكانه نظرا لحالته الصحية المتدهورة. ويجب أن يقوم الشخص الجديد بتنفيذ رغبات هذه الدوائر في القيادة المصرية. كان المقصود هو إغراق مصر بالسلاح السوفيتي ولتحقيق هذا الهدف يمكن تقديم تنازلات لموسكو على مدى عام أو عامين قادمين ثم إرسال إشارة مؤثرة بأن يتم رفض المساعدات السوفيتية وطرد الخبراء والقيام بعمل عسكري محدود ضد اسرائيل ومن ثم دعوة الامريكيين الى الشرق الأوسط كوسيط في الصراع وإضعاف النفوذ السوفيتي. وأكرر مرة أخرى أنني رأيت هذا التلغراف حتى بدون عنوان ودون «علامات». وقد استاء جروميكو بشدة من هذه البرقية وقال: «هذا أمر مشين، فالجميع يعرف أن هناك زيارة مرتقبة. وتظهر عشية الزيارة مثل هذه البرقية. هل من الممكن أن ترسل مثل هذه الأشياء! ماذا سيقول ليونيد إيليتش! ماذا سيقول عنا! » وتقرر محو البرقية. كأنها لم تأت وينتهي الأمر على ذلك.

المؤلف: معنى ذلك أنه كانت هناك رغبة في الاستمرار في الكذب على أنفسنا..

ي. بيرلين: كل شيء باسم الواقعية الاشتراكية. لم يكن أحد يتحدث عما يجري في الواقع بل كما يريد الحزب. وقد التقيت صدفة بعد سنوات عديدة مع ذلك الشخص– وكان متقاعدًا وقتها– الذي توقع أحداث الشرق الأوسط، وخاطر بحياته من أجل الحصول على معلومات، ولكن في موسكو لم يعثر على آثار برقية بمثل هذا المحتوى. وحكيت له ما حدث. كان هذا الرجل العجوز الصادق سيصاب بالسكتة الدماغية.

الرواية الثانية: أود أن أشير إلى يفجيني بريماكوف شخصيا: حيث علم عن عملية إبعاد أحد العسكريين السوفيت من مصر، وبلغ هذه المعلومة للسفير ف. م. فينوجرادوف:

obeikandl.com

" السفير لم يتمكن حتى من تمالك نفسه».

رد بغضب: لقد وصلت الى هنا لتقضي عدة أيام وها أنت تقوم باستنتاجات غريبة. لا يمر أسبوع إلا وألتقي السادات خمس مرات، ولهذا صدقني أنا أعرف الوضع أفضل منك بكثير.

– لديك تعليمات من موسكو للسماح لي برؤية البرقية المشفرة، وسأقول كل شيء للمركز، وأنت يمكنك أن تضيف أن ما قد كتبته عبارة عن تزييف مستمر، أنا أيضًا بدأت أفقد أعصابي.

– أنا لن أرسل البرقيات الخاصة بك، لأني لا أريد تضليل القيادة.

طار **ي. بريماكوف** إلى بيروت وسلم هذه المعلومات من سفارتنا. وبدوره سلم السفير س. أ. عظيموف، وهو ليس ضليعًا في الشؤون المصرية، هذه المعلومات إلى موسكو. . .

وصلت البرقيات الثلاثة المكتوبة بالشفرة «بعلامتها الكبرى»، والمرسلة من بيروت، إلى الأعضاء والمرشحين لعضوية المكتب السياسي، سكرتير اللجنة المركزية، أمًّا في وزارة الخارجية فأرسلت البرقيات لكل من أندريه جروميكو، ونائبه الأول ف. كوزنيتسوف.

لدى وصوله إلى موسكو دعاني زامياتين[1] لكتابة مقالة كبيرة أعرض فيها جميع انطباعاتي، في ما يسمى بالمقالة «الصفرية »، التي تحتوي على المواد السرية التي ترسلها وكالة تاس إلى قائمة صغيرة جدًا من المسؤولين في الاتحاد السوفيتي. لقد أعدت هذه المادة، وكانت الفكرة الرئيسة بها هي أنه على الرغم من القيمة الإيجابية من الاتفاقية التي وقعناها مع السادات، إلا أنها لا يمكن أن تكون حلًا سحريًا للتطورات غير المفيدة في الوضع الداخلي في مصر، والتغيرات في توجهات السياسة الخارجية، تلك التطورات التي تسير خلافًا لمصالح الاتحاد السوفيتي.

بعد أن نشرت المقالة «الصفرية»، تلقيت مكالمة من يفجيني ساموتيجين (الموظف المقرر لدى بريجنيف)، وقال: إن الأمين العام كان مهتمًا بهذه المادة المكتوبة، لدرجة أنه أخذها معه إلى المنزل حتى يتمكن من الإطلاع عليها بصورة أكثر تفصيلًا. وبطبيعة الحال، كان هذا مصدر إلهام ليّ. ومع ذلك، بعد يومين تبع ذلك مكالمة من يفجيني ساموتيجين وقال بإيجاز: «أنا أنقذتك».

1 ل. زامياتين - المدير العام لوكالة إيتار تاس (1970- 1978).

obeikandi.com

أشـــير هنا إلى أنه في شهر فبراير أو مارس أخبرني مراسل فرنسي يدعى إريك رولو بنفس المعلومة وهو المعروف بقربه من الدوائر العليا في مصر. ذهبت الى السـفير ستارتسيف. فقال لي: لمـــاذا نتدخـــل في أمور مصر ونحن هنا في اليمن؟ لن يكـــون لذلك تأثير يذكر. ثم رفض إرسال البرقية.

المؤلف: ألم يكن هناك أي تأثير لمبادرة بريماكوف حينها؟ ألم يكن أحد يرغب في معرفة الحقيقة؟

ي. د. بيرليـــن: لم يكن أحد يرغب في ذلك. حينهاكان بريجينيف يخاطب الســـادات بقولـــه: "صديقـــي وأخي العزيز" وكان ذلك يؤخذ على محمل الجد. ربما بدا الأمر مفزعا إذا نظرنا إليه بمنطق اليوم.

المؤلف: هل تغيرت الأمور كثيرا؟

ي. د. بيرلين: في الواقع، في تقاليد الحكم الاستبدادي في الشرق يجب أن تتحدث بلغة القائد وتفكر بعقله وتحدث بما يحب، وعندها ســتصبح الأذكى والأفضل والأمهر. ولا يمكن القـــول إن وزارة الخارجيـــة كانت تعبر عن المصالح الوطنية لأنهـــا كانت في الواقع تتحدث بما يرضي القائد. كان ذلك سمة لكل المنظومة الســـوفيتية. كانت هناك دولة عربية تستعد لقطع العلاقات معنا وطوال الوقت لا تصل إلينا من سفيرنا هناك إلا معلومات وأخبار وردية مفادها ان كل شئ على ما يرام. وبالمناسبة وردتنا معلومات من الكي جي بي أكثر موضوعية واتزانا وتثير القلق. لكن لم يهتم أحد بها. كان الرد بأنهم يبالغون وأنهم لا يفهمون شيئا في السياسة الكبرى. كانت المعلومة التي ترضي القيادة يتم تمريرها ومن ثم الموافقة عليها.

المؤلـــف: معنى هـــذا اننا كنا نعيش في أوهام. كان يتم تجميـــل المعلومات حتى يتحول الفشل إلى نجاح. فهل من الممكن مع الأخذ في الاعتبار بكل هذه الأمور، أن نعتبر أن أنشطة وزارة الخارجية في منطقة الشرق الأوسط كانت تعبر عن مصالحنا الوطنية؟

ي. د. بيرلين: لن أبالغ؛ وبالمقارنة بالقسم الدولي للجنة المركزية – فلا شك. ولكن وفقا لتقاليد وزارة الخارجية كان كلّ شـــيء يجري على نحو ســـلس، عن طريق تجنب الصعوبات، والقضـــاء على التناقضات التي كانت موجودة على أرض الواقع، وكانت ســـتظهر عاجلا أم آجلا، وحينئذ ســـيكون الأمر مؤلمًا. وقد كان من الواجب البدء في إظهار القضايا الحقيقية، والحديـــث عن الخطر الذي يهدد مكانتنا ، فتلك ذلـــك صرخة: مالكم تفرطون في الاهتمام بشؤون الغير؟

obeikandl.com

المؤلف: ولا يعتبر السعي إلى الحقيقة من سمات النظام البيروقراطي؛ وإنما السعي إلى العظمة، وإظهار الرفاهية أو إلى الكفاءة.

ي. د. بيرلين: لذلك تحدثت عن «الخلافات بين الإدارات»، حيث كانت هناك انقسامات داخل الإدارات، بين البرجماتيين الواقعيين والمهنيين، وبين الأشخاص الأمناء الصادقين والغشاشين والوصوليين، ومرشحي الأحزاب، والثرثارين.

المؤلف: انتشرت أمراض مجتمعنا في جميع الإدارات المشتغلة بالسياسة الخارجية. ولكن لكونها إدارات متنافسة مع الغرب، توفرت في هذه الإدارات مجموعة من الدبلوماسيين المهنيين من الدرجة العالية.

ي. بيرلين: للأسف، لم يكونوا هم من قام بتحديد الصورة العامة على الرغم من بقاء الشرق الاوسط ضمن دائرة أولوياتنا. . فحسب مذهبنا إذا لم يتوافق معنا منحنى الأحداث والحقائق، فهذا يعني أن الأمور صارت أسوأ بالنسبة للآخرين. في الشرق الأوسط تتجاوزنا الأحداث، ونحن في أماكننا واقفين نكرر تعويذتنا ومستمرين في عقيدتنا.

كانت مفارقة قاسية تكمن في أن أفضل شيء يمكن أن تفعله القيادة السوفيتية هو ألا تفعل شيئا. فمن الأفضل أن تتطور الأحداث في الشرق الاوسط من تلقاء نفسها، وشيوخ الكرملين يعيشون في عالمهم، ويبتهجون بمجاملة بعضهم البعض بالأقوال والمكافآت والمقالات في صحيفة برافدا . . . لأنهم إذا بدئوا في التحرك الفعال، فبحكم الضعف الروحي والجسدي وعدم الكفاءة والمهام الأيديولوجية، وفي ظل غياب كامل للرقابة العامة، كانت نتائج أعمالهم ستكون مأساوية. وفي الوقت نفسه كان هؤلاء منشغلين بأمور السياسة الداخلية والسياسة الخارجية خارج حدود الشرق الأوسط والأدنى .... وسنتحدث نحن في الفصل القادم عن أفغانستان.

* * *

Endnotes

1. حوار مع ن. ج. إيجوريتشيف، يناير 1990
2. ك. ن. بروتينتس، ثلاثون عاما في الميدان القديم، موسكو. 1998. ص 165-164
3. المصدر نفسه ص 166
4. Dawisha K. Soviet Foreign Policy, c. 148.
5. ك. ن. بروتينتس، ثلاثون عاما في الميدان القديم، موسكو. 1998. ص 167
6. المصدر نفسه، ص 172، 174
7. حوار مع ب. ن. بونوماريف، يوايو 1990
8. حوار مع ي. ن. تشيرنياكوف، مارس 1990
9. حوار مع أ. جروميكو، مايو 1990
10. حوار مع ك. م. ترويفتسيف، نوفمبر 1990
11. حوار مع ي. د. بيرلين، مايو 1990
12. أ. أ. جروميكو، باميتنويا، ص 192
13. حوار مع أ. ي. بوفين، أبريل 1992
14. حوار مع ن. ج. إيجورتشيف مايو 1990
15. حوار مع أ. شيفاردنادزه، أغسطس 1991
16. حوار مع يو. ن. تشيرنياكوف، مارس 1990
17. حوار مع ي. د. بيرلين، مايو 1990
18. حوار مع ف. ب. بولياكوف، يوليو 1990
19. حوار مع يو. ن. تشيرنياكوف، مارس 1990
20. حوار مع ي. د. بيرلين، مايو 1990
21. بريماكوف، يوجين، سرية: الشرق الأوسط وراء الكواليس (النصف الثاني من القرن العشرين – بداية القرن الحادي والعشرين). موسكو، 2012. ص. 145،143.

obeikandl.com